دكتور محمد عبد المنعم خفاجي

أبو الفتح الإسكندري

بطل مقامات بديع الزمان وشخصيته المجهولة

الطبعة الأولى
١٩٩٦ م - ١٤١٦ هـ

مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

أبو الفتح الاسكندرى

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــــــــدير

أبو الفتح الاسكندرى كما يعرفه علمـاء الأدب هـو البطـل فى مقامات بديع الزمان الهمـذانى .

وهو يقوم بالدور الرئيسى فى الأعمال الساسانية التى احترفها ، وأجاد تمثيلها ، انه هـو بطـل الرواية وصانعها ، أما الذى روى عنه كل ما قام به من بطولات مصنوعة فهـو الحارث بن هشام .

وأغلب الظن عند شتى الدارسين انهما شخصيتان أسطوريتان ، ليس لهما نصيب من الواقـع التاريخى .

وهـذه القضية مرت عبر الأجيال دون دراسة أو تحقيق ، ومر بهـا الأدباء والباحثون المعـاصرون كذلك ، دون جـديد ، ودون رأى قاطـع فيها ؟ وان كـان أحـد الباحثين المعاصرين قـد قارب الوصـول الى حلهـا والحكم فيها ، لكنـه ترك البـاب مفتوحاً ، وبنى اراؤه على الظـن والاحتمال .. ومن عجب أن يكـون ذلك بعـد صـدور كتـابى « ابو دلف عبقرى من ينبع » ممـا يرجـح انه اطـلع عليـه ، وقـرأ ما دونتـه فيـه .

وفى هـذا الكتاب درست هـذه القضـية من مختلف وجرهها ، وابديت الرأى الحاسم فيها ، وهـو ما أعتز به ، وأعتبره الحل الأول والأخير فى هـذه المشكلة التى استعصى علي الأجيال حلها .

وبالله التوفيـق ..

المؤلـف

الباب الأول

فـــن المقـــامة

الفصل الأول

فــن المقــامة فى أدبنـــا

— ١ —

يقـول الشريشى فى شرحـه لمقـامات الحـريرى(١) : « المقـامات المجالس ، واحـدتها مقامة ، والحـديث يجمع لـه ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلسا ، لأن المستمعين للمحـدث ما بين قائم وجالس ، ولأن المحـدث يقوم ببعضه تارة ويجلس ببعضه أخرى ، قال الأعلم : المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعـل الخير ، والبديع نفسه يبين ذلك بقوله فى المقـامة الوعظية : « قال عيسى بن هشام : فقلت لبعض الحاضرين : من هـذا ؟ فقال : شخص قـد طرأ لا أعرفه ، فاصبر عليه الى آخر مقامته ، لعـله ينبئ عن غلامته » فالمقامات جمع مقـامة ، وهى : كالمقـام ، اسـم مكان من قام بالمكان بمعنى أقام فيـه ، وعلى هـذا المعنى قـول المسيب بن علس :

وكالمسـك ترب مقـاماتهم　　وترب قبـورهم أطيب

ثم توسـع فى استعمال اللفظ ، فانتقل الى الدلالة على الجماعة المقيمة بالمكان ، وبهـذا المعنى جاءت فى قول زهير بن أبى سلمى :

وفيهم مقامات حسان وجوههم　　وأندية ينتابها القـول والفعل

ثم انتقل مرة أخرى ليدل على الكلام الذى يلقى فى مجلس من المجالس ، كما استعملت كلمة مجلس فى هـذا المعنى أيضا ، وسمى بها الشريف المرتضى دروسه التى كان يلقيها على تلاميذه ، ودونهـا فى أماليه ، فصـولا سمى كل واحـد منها مجلسا على هـذا الاستعمال الأخير ، وعقد ابن قتيبة فى كتابه « عيون الأخبار » فصلا لكلام الزهد بين أيدى الملوك ، وجعل عنوانه : « مقامات الزهاد عند الخلفـاء والملوك » ، وقال الجاحظ فى كتابه « البخلاء » فيما قال : ويذكرون من الشعر الشاهد ، والمثل ، ومن الخبر الأيام والمقامات .

---

(١) راجع كتابى الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى — ١٩٥٦ .

هـذا هـو معنى المقـامة اللغـوى ، أما معنـاها الفنى فهـو هـذا الفن البليغ البديع المنمق ، الذى صيغ فى أسلوب قصصى لطيف ، ويمثل قصة وقعت لشخص أو أشخاص ، يتخيلهم الكاتب ، ويضع على ألسنتهم حوارا يجتهد فيه فى التحسين والتزيين والوشى ، ويلتزم فيه السجع أو يكثر منـه ، ويودعه ما أراد لـه ذوقـه من طرائف ووصـف للأخـلاق وروائع وملح وبدائع ، ونقـد للأشخاص والمجتمع والبـلاد والنـاس ..

ولقد كان من أثر اتصال كتاب العربية بالآداب القديمة ، وتنقلهم فى أفغانستان وخراسان وبلاد فارس ، أن اتصلوا بالحياة الاجتماعية ، وخالطوا العامة من الناس ، وسمعوا شيئا من أقاصيصهم وأحاديثهم ، وعرفوا بعض الأشخاص الذين يتحدث الناس بأوصافهم وأخلاقهم ، وكان بعض هؤلاء الكتاب يجيدون اللغـة الفارسية ، وربما كانوا يعجبون بهـا وبأساليبها ، فأخـذوا فى محاكاة بعض تلك الأحوال والكتـابة على نمطها باللغـة العربيـة ، وقـد كان لأثر الحيـاة الفارسـية قبل هـذا العصر دخـل فى لغة العرب ، بمـا كتبه ابن المقفع وسـهل بن هارون وغيرهما ، فظهر أثر ذلك فى الكتابة النثرية ، فلمـا كان هـذا العصر ظهر أسلوب المقامات المحتوى على قصص قصيرة ، يصف فيها الكاتب أحـد الناس وأخلاقه ، ويذكر بهـا بعض الحوادث والأماكن بأسـلوب مسجع ظريف . وكان النثر الى هـذا العصر مقصورا على الرسائل وكتابة الدواوين والفصول الأدبية ، ولم يكن الأسلوب القصصى قـد تسرب بعـد الى الكتـابة العـربية ، فلمـا كتب بديع الزمان مقاماته ، كانت تلك المقامات نوعا جـديدا فى أساليب النثر العربى ، وسار على أسلوب الهمذانى من جاء بعـده من الكتاب أصحاب المقامات كالحـريرى وغـيره .

وواضح من المقـامات المروية عن البديع والحريرى أن الكدية (الشحاذة) أهم أغراضها ، ومن ثم قيـل عن المقامات إنهـا تطلق على ما يقصه أهـل الكدية والشحاذون من الأدباء بلغـة عربية فصيحة تعـد فى أسلوبها من نماذج النثر الفنى الرفيع فى الأدب العربى ..

وقد نسب الحريرى فى مقدمة مقاماته فضل ابتداع المقامات الى بديع الزمان وعلامة همذان ، ومن كتاب المقامات بعده : ابن نباته السعدى ، أبو الهيجاء الأصفهانى ، ابن الجوزى ، ابن الوردى ، الشيخ العطار ، أحمد فارس الشدياق ، اليازجى ، وعبد الله فكرى ، والمويلحى وغيرهم ٠

- ٢ -

والمقامات صورة للقصة القصيرة ونموذج لها ، ففيها من القصة القصيرة العقدة وتحليل الشخصيات ٠٠ والمقامات من أولى بذور النثر القصصى فى الأدب العربى لأنها ترمي الي تصوير بعض النفوس والشخصيات بطريق قصصى ولولا انصراف الكتاب الى الصناعة اللفظية لخطت المقامات خطوات واسعة فى سبيل النثر ٠٠ على أن أسلوب المقامات انتشر بين الناس وذاع أثره لولوع الناس بالصناعة اللفظية ويشير أسلوب المقامات الى أن ظاهرة التقليد كانت طاغية،وان كانت من ناحية الموضوع محاولة لخلق القصة الفنية ، ومن ناحية الصياغة كانت تمثل عصر صاحبها وما عليه صورة الأدب من قوة أو ضعف ٠ وتعتمد القصة الناجحة أكثر ما تعتمد على العقدة والعرض وعنصر الحركة والمفاجأة والوقائع المثيرة ، والتفاصيل الدقيقة وتسجيل ألوان من الحياة الاجتماعية وهذه الأصول متوفرة فى كثير من المقامات التى تدخل فى باب القصة من أوسع الأبواب ٠ وكان من الطبيعى أن توجد المقامة فى الادب العربى فهى قصة تروى ، ومن طبيعة الانسان أن يروى قصصه وقصص الآخرين ٠ وقد ساعد رقى النثر الفنى فى القرن الرابع على كتابة القصة القصيرة أو فن المقامة بأسلوب رائع جذاب وان كان البعض يقول أن المقامات ربما كانت مقتبسة من أدب فارس ، ولكن البعض الآخر يؤكد على أن الأدب الفارسى لم يعرف فن المقامة قبل البديع ٠٠ ولا فى عصره ٠٠ وانما عرفت بعده بقرن من الزمان ٠٠ وأولى مقامات كتبت بالفارسية كانت للقاضى حميد الدين البلخى ٠ ويقول بعض النقاد الفارسيين أن لفظ مقامة هو من اختراع بديع الزمان ٠ ويقول بعض المستشرقين أن أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان قد أوحتا الى بديع الزمان بفكرة المقامات ، ويذكر آخرون

أن قصص جحا من الآداب الفارسية والتركية هى التى أوحت لبديع الزمان بالمقامات • وهـذا الكلام كله يحتاج الى دليل فالواقع ان الظروف السياسية والاجتماعية والأدبية والفنية فى المجتمع العربى هى التي أوحت الي بديع الزمان بانشاء القصة القصيرة وكتابتها •

والحوار فى المقامة عنده يدور بين رجلين هما : عيسى بن هشام الراوية وأبو الفتح الاسكندرى البطل •• كلاهما شخص خيالى كما يقول أن عيسى بن هشام الراوية كان شـيخا للبديع ، وموضوع المقامات يتناول نقـد المجتمع الاسلامى فى القرن الرابع وتصوير حياة المسلمين الاجتماعيـة والعقليـة فى هـذا العهـد ، ولعـل « البـديع » كان يقصـد بمقاماته الى كتابة نمـاذج ادبيـة رائعـة يجتذيها الشباب فى دراستهم وحياتهم الأدبية والمقامات تعكس قـدرة على الصياغة واختيار الألفاظ والتأنق فى الجمل والتعبير ، ألفاظها مختارة عـذبة ينـدر فيها الغريب وأسلوبها منمق يكثر فيه السجع والجناس والطباق وغير ذلك من ألوان البديع ، ويضمنه ما يناسب المقام من قرآن او حديث • ولكن يؤخـذ عليها ان الجانب الفنى فيها للقصـــة غير متكامل فالحبـــكة القصصية ضعيفة والحوادث غير متسلسلة •

- ٣ -

وقـد ادى ظهـور فـن المقامات فى الأدب العربى الى غنـــائه فى الألفاظ والأساليب والأخيـلة والمعـانى ، واضافت المقامات الى الأدب العربى فنـــا ادبيـــا جـديدا لم يكن لـــه وجـود مي قبل هـــو فن القصة القصيرة ، وقـدمت المقامات نمـاذج ادبيـة جميلة للأدباء ليحاكـــوها ويسيروا على منوالها ممـا يساعد على قـوة الملكة والموهبة وقـد أحيت المقامات كثيرا من مفردات اللغـة واساليبها ومن صور الأداء والتعبير فيها ، وكذلك فان كتب المقامات وشروحها والدراسات التى وضعت حولها •• كل ذلك كان ثروة للغـــة العربية وآدابها ، وقـد أسهمت المقامات فى بنـاء النهضة الأدبية الحـديثة فى مصر والعالم العربى • كما ظهـر فـن ادبى جـديد متأثر بفـن المقامة وهـو ضرب من الانشاء فيه تشابه مـع المقامة وأن كان ليس منها اذ لا يعتمد خصائص القصة ولا جانبها الفنى وهـو مقالات قصار تعتمد على الايجاز وتقصـد الى

الوعظ الحكمة تقدم النصح والخبرة وثمرة التجربة الى القراء ولا تحتوى على الحوار او البطل .

وقد نمت المقامات وازدهرت فى بلاد خراسان وما وراء النهر ، تلك البلاد التى كانت قبل الفتح الاسلامى جزءا من الامبراطورية الفارسية ، فلما دخلها العرب وحكموها نشروا فيها دينهم ولغتهم وثقافتهم ، فانجبت فحول العلماء والأدباء والشعراء . وقد اشتملت خراسان فى العهد الاسلامى على أربعة اقاليم عواصمها « نيسابور » و « مرو » و « هراة » و « بلخ » . وكانت هذه الاقاليم تحت حكم أربعة من آل سامان ، وهم من الفرس الذين عرف المأمون فضلهم ونبلهم ، فعينهم عليها حكاما ، وعرفت هذه بالدولة السامانية .

وفى عهد الدولة السامانية ظهرت حركة ادبية قوية من شعر ونثر فنى لعدد كبير من الأدباء يذكر التاريخ اسماءهم منسوبة الى بلادهم التى نشأوا بها ، فنقرأ اسماء « البلخى » و « الخوارزمى » و « الفارابى » و « الترمذى » و « البخارى » و « النيسابورى » و « الزمخشرى » . وسواهم . وكانت بخارى مطلع نجوم الأدباء والشعراء والكتاب آنذاك ..

وقد صال « بديع الزمان » وجال فى كتابة المقامات ، واملى أربعمائة مقامة فى الكدية (الاستجداء) ولم يعثر منها الا على ثلاث وخمسين مقامة . وتوالى بعد « البديع » كتاب المقامات ومنهم ابن « نباته السعدى » ، و « احمد بن فارس » ، و « السيوطى » ، و « الزمخشرى » وغيرهم ، ولكن لم يشتهر منها سوى مقامات « الحريرى » التى تعادل مقامات « بديع الزمان » فى خفة الروح ، وجمال الأسلوب ، وطلاوة التعبير .

ويقول الشريشى شارح مقامات الحريرى : « المقامات : المجالس واحدتها مقامة ، والحديث يجتمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلسا ، لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس »(١) .

---

(٢) شرح الشريشى لمقامات الحريرى ص ١٠ ط بولاق .

وكان بديع الزمان الهمذانى أحد فحول المقامات الإنشائية يعنى من كلمة « مقامة » معنى مجلس ، فقد جاء فى المقامة الوعظية : عن عيسى بن هشام (وهو راوى مقاماته) : فقلت لبعض الحاضرين من هذا قال : غريب قد طرأ لا أعرف شخصه ، فاصبر عليه الى آخر مقامته ، لعله ينبىء بعلامته .

والمقامة بهذا المعنى تتواءم كل المواءمة مع المعنى الأدبى الذى يرمى اليه الأدباء وهو الأسلوب الفحل والتعبير الجزل الذى ينتظم عقده ألفاظا غريبة قوية ومعانى دقيقة فنية وألوانا من السجع والمحسنات البديعية وروائع الشعر والحكم والأمثال يروى على لسان امرىء خيالى .

- ٤ -

وقد ذكر أبو اسحق الحصرى صاحب زهر الآداب فى ترجمته بديع الزمان الهمذانى أن أول من وضع أسس المقامات هو ابن دريد قال « ولما رأى البديع أن أبا بكر محمد بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثا ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره واستنتجها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضمائر فى معارض أعجمية وألفاظ حوشية ، فجاء أكثرهما مما تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع حجبها الاسماع ، وتوسع فيها اذ تصرف فى ألفاظها ومعانيها فى وجوه مختلفة ، وضروب متصرفة ، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكدية تذوب ظرفا وتقطر حسنا ، لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى ، وعطف مساجلتها ، ووقف مناقلتها ، بين رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام ، والآخر أبا الفتح الاسكندرى وجعلهما يتهاديان الدر ويتنافسان السحر »(٣) .

وروى الدكتور زكى مبارك أن البديع عارض ابن دريد مقامات تدانى فى عددها مقامات ابن دريد اذ يقول « أن بديع الزمان عارضه

---

(٣) زهر الآداب جـ ١ ص ٢٣٥ .

بمقامات أربعين انشأها ابن دريد ، والمعارضات كانت تتقارب فى الكمية »(٤) ويفهم من قول الحصرى » « وأهداها للأفكار والضمائر فى معارض اعجمية » ان ابن دريد انشأ احاديثه فى بيئة فارسية ، وأن البديع حين عارضه سمى أحاديثه مقامات ، وصنيع البديع الهمذانى فى هذا الفن أجلى وأروع ، والذين انشاوا بعد ذلك مقامات لم يصدروا الا عن ورد الهمذانى فتاثروا بطريقته واحتطبوا فى حبله .

ويذكر جورجى زيدان أن أبا الوليد أحمد بن فارس الرازى الأديب اللغوى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ صنع مقامات فيقول : « وله التقدم فى وضع المقامات ، لأنه كتب رسائل اقتبس منها العلماء صنعته وعليه اشتغل بديع الزمان الهمذانى »(٥) بيد ان مقاماته ضاعت كما ضاعت مقامات ابن دريد .

وضياع مقامات ابن دريد وابن فارس جعل اكثر المؤرخين يعدون البديع أبا عذرة المقامات ومفترع بكارتها ، ولقد شيد البديع صرح مقاماته على الكدية(٦) وأدار الحديث بين شخصين ، جعل احدهما بطلا وهو أبو الفتح الاسكندرى ، والآخر راوية وهو عيسى بن هشام ، وعدد مقاماته التى بين أيدينا خمسون مقامة اجاد فيها الحلة ريطتها وسربالها ، ثم جاء بعد الهمذانى ابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ فدبج مقامات لم يتح لها أن تبلغ شأن مقامات البديع ولم تحظ بشهرة أو اعجاب ، ثم وضع ابو القاسم البغدادى بعده مقامات لم تلبث أن ذهبت صرخة فى واد واخنى عليها الذى اخنى على لبد(٧) ، ثم جاد الزمن بأبى محمد القاسم ابن على الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ فتفتحت اكمام بلاغته عن خمسين مقامة ، اعتمد فى تشييد صرحها على اديبين ـ على غرار الهمذاني ـ أحدهما البطل والآخر الراوية أما البطل فليس خياليا ، وانما هو

---

(٤) النثر الفنى جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٥) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٢ ص ٣٠٩ ط دار الهلال سنة ١٩١٢ .

(٦) الكدية : معناها التسول .

(٧) ويظن أن أبا القاسم البغدادى هو كناية عن أبى حيان التوحيدى (ت ٤١٣ هـ) فهو صاحب هذه المقامات وصانعها .

شخصية لها ظـل فى واقع الحياة ، فقـد اتفق أن قـدم البصرة أعرابى فصيح يسمى أبا زيد السروجى فنحله الحريرى وقائع مقاماته ، ونسب اليه القيـام بأدوارها ، وأما الراوى فهـو شخصية خيالية محضة(٨) ، ويسمى الحارث بن همام ويتغيا بذلك نفسه ، وقـد شاعت مقامات الحريرى وطبقت شـهرتها الافـاق وحظيت بالقبـول والوفاق وهزجت بها العصور وتغنت بها الدهور ٠

وجاء بعـد الحريرى أدباء دبجـوا مقامات لم يتح لهـا الشهرة وكانت ادنى الى المقالة منها الى المقامة مثل جار الله الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٧ هـ٠وسمى مقاماته «أطبـاق الذهب» وهي حكم ومواعظ موجزة لا تمت الى القصة بوشيجة وليس لهـا بطل ولا راوية وقد عارضـه شرف الدين الأصفهانى سماها « أطـواق الذهب » ٠

ـ ٥ ـ

وكان كتـاب المقـامات فى هـذه الآونة يجيدون الصنعة البديعية ويتجـلى فى ادبهم طابعهـا ، وكانوا ينشـئون المقـامات للمفـاخرة والتباهى بالتضلع فى اللغـة والأدب والبراعة فى الغوص الي أعماق اللغة واستخراج دورها ولآلئها ، والتحليق فى الآفاق لاصطياد الشوارد والأوابد من الكلمات الغريبة والعبارات الفحلة والأساليب الجزلة ، وجورجى زيدان يرى أن « المراد بالمقـــامات فى الأكثر التفنن فى صناعة الانشاء » وذكر الحريرى انه انشأها استجابة لرغبة من اشارته حكم وطاعته غنم ، وتلا فيها تلو البديع الذى عزا الى أبى الفتح الاسكندرية نشأتها ، والى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ونكـرة لا تعـرف(٩) ٠٠

ولقد شيد البديع صرح مقاماته على الكدية وجاء مقامات الحريرى

---

(٨) تاريخ آداب اللغـة العربية ج ٢ ص ٢٧٥ ٠

(٩) مقـامات الحريرى ص ٥ ٠

على هذا الغرار ، وكانت الكدية رائجة السوق فى هذه الأونة ، ولعل السبب هو ظلم الحكام وطغيانهم وفساد النظام الاجتماعى فى القرن الرابع والخامس .

وهكذا كانت المقامات مظهراً من مظاهر النشاط الأدبى الذى عبق أرجه وتضوع شذاه فى القرن الرابع الهجرى ، فان الكتاب تباروا بأفراس مضمرة فى حلبة الكتابة واقتعدوا غاربها ومتحوا من ينابيعها اللغوية .

فتجلى أثر ذلك فى أدبهم بهذه المقامات التى جاءت عقداً خلابا يزين جيد بنت عدنان ويخلب اللب والوجدان بما حفلت به من الكلمات اللغزية والفقرات القوية والأشعار الشاغرة والأمثال السائرة والحكم الرشيقة والعظات الأنيفة وبنوع خاص مقامات الحريرى التى استرعت الأنظار واستلفتت الأفكار ، واشرأبت اليها أعناق الظامئين الى الأدب وعشاق الغريب فى لغة العرب واتخذوها ينبوعا ثرا للألفاظ الجزلة والعبارات الفحلة التى حافظت على ثروة اللغة وكانت موسوعة أدبية ينهل الظامئون الى الأدب من ينابيعها الثرة فينقعون الغلة ويشفون العلة .

ـ ٦ ـ

وكانت المقامات ارهاصا بتبلج اصباح القصة العربية فأنها ـ فى الواقع ـ ليست سوى قصص قصيرة أشبه بالقصص التى تسمى عند الفرنج الدراما ، وقد تنيل طريقتها الأدباء ترفعهم نجاد التوفيق حينا وتخفضهم وهاد الأخفاق حينا آخر ، حتى كانت آخر المحاولات الموفقة على يد محمد المويلحى حين أخرج لنا كتابه الرائد « حديث عيسى بن هشام » فى أسلوب قصصى طريف يطوف بمحراب السجع فى كثير من التعبير ويجنح عن الوعورة فى كل تصوير وجعله على لسان راوية اتخذ اسمه عنوانا للكتاب ، فجاء صورة جلية للمقامات ، وان اختلف عنها ببضاضة الأسلوب والزهد فى الغريب .

ولعـل من اروع المقامات التى حفل بها العصر الحـديث مقامات ناصف اليازجى التى اسماها « مجمع البحرين » والتى بلغت ستين مقـامة أستهلها بالبدوية واختتمها بالمقامة المقـدسة وقـدم لهـا فقال « اننى قـد تطفلت على مقـام اهـل الأدب ، من ائمـة العـرب ٠٠ الى سهيل بن عباد ، وكلاهما « هى بن لي » مجهولة النسبة والبلاد ، وقـد تحريت بتلفيق أحاديث تقتصر من شـبه مقاماتهم على اللقب وقبست وقائعهـا الى ميمون ابن خزام ان اجمـع فيها ما اسـطعت من الفوائد والقواعـد والغرائب والشوارد والأمثال والحكم والقصص التى يجرى بهـا القـلم وتسعى لهـا القـدم الى غير ذلك من نوادر التركيب ومحاسن الأساليب ، والأسماء التى لا يعثر عليها الا بعـد جهـد جهيـد » ٠

ونحن اذا عرفنا أن القصـة تعتمد على عنصر الحركة والمفاجآت والوقائع المثيرة ، والتفاصيل الدقيقة وتسجيل صور من واقع الحياة الاجتماعية ، الفينا أن كثيرا من هـذه السمات يتجلى فى كثير من هـذه المقامات ٠

الفصل الثانى

رائد فن المقامة

- ١ -

ينسب الحريرى فى مقدمة مقاماته فضل ابتداء المقامات الى بديع الزمان ، وعلامة همذان .

وكذلك الثعالبى يجعل البديع أبا عذرتها وأصل نشأتها .

ولكن الحصرى صاحب « زهر الآداب » يقول : ولما رأى البديع أبا بكر بن دريد أعرب بأربعين حديثا ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره ، وأهداها للأفكار والضمائر ، فى معارض عجمية ، وألفاظ حوشية ، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكدية تذوب ظرفا ، وتقطر حسنها(١) . ويقول الدكتور زكى مبارك معلقا على هذا الكلام : مؤدى ذلك أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وأنه حاكى فيها ابن دريد فى أحاديثه ، ولكن لا ينفى ذلك أن البديع له فضل فى نشأتها .. وظاهر أن هذه الأحاديث هى ما دونه صاحب الأمالى فى فى كتابه من أحاديث ومجالس لغوية يرويه عن ابن دريد ، ويذهب البعض الى أن هذه الأحاديث المدونة فى « الأمالى »(٢) مصنوعة منتحلة على ابن دريد ، والبعض الآخر يذهبون الى أن ابن دريد قد اخترع هذه الأحاديث ونحلها لبعض الأعراب ليجعل منها صورا غريبة تروى وتحكى وتحتذى ردا على

---

(١) ١ : ٢٣٥ زهر الآداب . راجع كتابى الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى .

(٢) مثل حديث مصاد بن مذعور وما جرى له مع الجوارى الطوارق بالحصى الذى يذكر بالمقامة الرصافية للبديع وما فيها من حيل اللصوص ، ومثل مقام بعض الأعراب بالمسجد مستجديا ، مما يشبه مقامات عيسى بن هشام ، بالمساجد مكديا .

الشعوبيين وعلى الفرس الذين أخذوا يحيون لغتهم وأدب بلادهم القديم في عصر ابن دريد ، ولتكون هذه الأحاديث نماذج للتعليم(٣) . وينفى باحث أن تكون أحاديث ابن دريد ذاتُ صلة بفن المقامات كما عرف عند البديع(٤) ، وكان ابن دريد كاتبا لآل ميكال ، وكانوا ولاة على فارس .

وذهب أحد الباحثين الى أن أبا المطهر الأزدى هو صاحب « حكاية أبي القاسم البغدادى » وأنها هي الأصل الذى احتذاه البديع في مقاماته ، وأن الأزدى هو مبتكر فن المقامة(٥) ، وشخصية أبي القاسم البغدادى في حكايته هي شخصية أبي الفتح الاسكندرى . وذلك مما يثبت لنا عدم صحته .

ـ ٢ ـ

ويروى لابن فارس الامام اللغوى المتوفي عام ٣٩٠ هـ مقامات ، ويقول فيه جورجى زيدان : « له فضل التقدم فى وضع المقامات ، لأنه كتب رسائل اقتبس منها العلماء نسقه ، وعليها اشتغل بديع الزمان . تلميذ ابن فارس » ويقول فيه ابن خلكان : لابن فارس رسائل أنيقة ومسائل فى اللغة اقتبس منها الحريرى صاحب المقامات ذلك الأسلوب ، ووضع المسائل الفقهية فى المقامة الطبية .

ثم جاء بديع الزمان ، فرويت له خمسون مقامة ، والراجح أنه انشأ اربعمائة مقامة ، على ما روى الثعالبى وياقوت وابن خلكان ، ويؤكد ذلك البديع نفسه فى رسالته الى أبي المظفر ، حيث يقول : « ومن أملي من مقامات الكدية أربعمائةمقامة لا مناسبة بين المقامتين

---

(٣) ص ١٣٧ دراسات فى الأدب .

(٤) ص ٢٠٧ بديع الزمان للشكعة .

(٥) يبدو أن ذلك غير صحيح وأن صانع « حكاية أبى القاسم البغدادى هو أبو حيان التوحيدى .

لفظا ومعنى ، حقيق الانهاج لكشف غيريه »(٦) ، والظاهر أن أكثر مقامات البديع قد ضاع ، ولم يبق الا ما تضمنته مقامته المطبوعة .

ومن كتاب المقامات بعد البديع : ابن نباته السعدى م ٤٠٥ هـ ، والحريرى م ٥١٦ هـ ، وأبو الهيجاء الأصفهانى الذى الف مقاماته عام ٥٤٩ هـ وتوفى فى القرن السادس ، وكذلك ابن الجوزى م ٥٩٧ هـ ، ثم ابن الوردى ، والشيخ العطار ، واحمد فارس الشدياق ، وناصيف اليازجى ، وعبد الله فكرى ، وسواهم .

- ٣ -

والمقامات هى صورة للقصة القصيرة ، ونموذج لها ، ففيها من القصة القصيرة العقدة ، وتحليل الشخصيات(٧) .

وتحسب المقامات من أول بذور النثر القصصي في الأدب العربي لأنها ترمي الي تصوير بعض النفوس والشخصيات بطريق قصصى ، ولولا انصراف الكتاب الى الضناعة اللفظية لخطت المقامات خطوات واسعة فى سبيل النثر القصصى الذى يصور حياة النفوس والاجتماع . على أن أسلوب المقامات تمشى في الأدب العربي ، وذاع أثره فى بلاد المشرق والمغرب ، لو لوع الناس بالصناعة اللفظية .

ويشير أسلوب المقامات — على اختلاف عصور أصحابها وأمصارهم — الى أن ظاهرة التقليد كانت طاغية عليهم غالبا ، وأنها من ناحية الموضوع كانت محاولة كبيرة لخلق القصة الفنية ، ومن ناحية الصياغة كانت تمثل عصر صاحبها ، وما عليه صورة الأدب من قوة أو ضعف ، وبذلك تراها كانت تنحدر بانحدار الأدب جيلا اثر جيل ، من إستمساك فى الأساليب ، الى هلهلة وركاكة جريا وراء البديع ومراكمة بعض زخارفه فوق بعض .

---

(٦) ٢٢٧ رسائل البديع .
(٧) ١ . ٢٠٧ النثر الفنى لزكى مبارك .

وتعتمد القصة الناجحة أكثر ما تعتمد على العقدة والعرض ، وعنصر الحركة والمفاجأة والوقائع المثيرة والتفاصيل الدقيقة ، وتسجيل ألوان من الحياة الاجتماعية .. وهذه الأصول متوافرة فى كثير من المقامات التى تدخل فى باب القصة من أوسع الأبواب ، ومن أمثلة ذلك المقامة الموصلية ، والأسد وسواهما(٨) .

- ٤ -

ولكن لماذا نشأ فن المقامة فى الأدب العربى ؟

١ - انه لمن الطبيعى أن توجد المقامة فى الأدب العربي فهي قصة قصيرة مسطرفة تروى ، وحوار يؤثر ، ومن طبيعة الانسان أن يقص قصصه وقصص الآخرين ، وقد ساعد رقى النثر الفنى في القرن الرابع على كتابة القصة القصيرة أو فن المقامة بأسلوب رائع جذاب مشرق ، ومن تمام التشويق اختار البديع موضوع مقاماته فى الكدية، وقلده فى ذلك الحريرى وسواه ، والحريرى كذلك يقلد البديع فى فن المقامة اذ أنشأ خمسين مقامة على نمط المروى للبديع(٩) .

٢ - ويذكر البعض أن المقامات مقتبسة من أصل فارسى ، ولكن الباحثين المنصفين من عرب وفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت فى الأدب الفارسى قبل البديع ، اذ لم تعرف المقامات فى الأدب الفارسى قبله ولا فى عصره ، وانما عرفت بعده بقرن ونيف ، وأول مقامات كتبت بالفارسية هى للقاضى حميد الدين البلخي الذى بدأ بانشائها عام ٥٥١ هـ ، وتوفى عام ٥٥٩ هـ - ١١٦٤ م كما يقول براون ،

---

(٨) راجع ٢٧٩ وما بعدها - بديع الزمان للشكعة .

(٩) سبق أن قلنا ان البديع كتب اربعمائة مقامة ، ويرجح البعض أنه لم يمل الا أربعين مقامة عارض بها أحاديث ابن دريد الأربعين ، وهذا خطأ ، ومقامات البديع المطبوعة خمسون فى طبعة الشيخ محمد عبده ، واحدى وخمسون فى طبعة الجوائب ، وثلاث وخمسون فى طبعة أخرى ، وقد أسقط الامام محمد عبده المقامة الرصافية لما اشتملت عليه من فحش ومجون .

ويؤكد محمد تقى بهار فى كتابه « تاريخ تطور النثر الفارسي » أن لفظ مقـامة من اختراع البديع وأن كل اختراع فى الأدب العربى كان لـه صدى فى الفارسية ، وأن حميد الدين قلـد البديع والحريرى فى مقاماته · ويذكر الأنورى اعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين هـذه(١٠) ·

٣ ـ يذكر بعض المستشرقين أن أساطير التوراة عند اليهود ، وقصـة لقمان ، قـد أوحتا الى بديع الزمان بفكرة المقامات ، وكذلك يذكر آخرون أن قصص جحـا فى الآداب الفارسية والتركية والعربية من ملهمات البديع بفن المقامات ·· وهـذا استنتاج لا يؤيده الدليل ، فالواقع أن الظروف السياسية والاجتماعية والعقلية ، والأدبية والفنية فى المجتمع العربى أوحت الي كاتب عربي هـو البديع بانشاء القصة الصـغيرة وكتـابتها ·

ـ ٥ ـ

سمات مقامات البديع :

١ ـ الحوار فى المقامة عند البديع يدور بين رجلين هما : عيسى ابن هشام الراوية ، وأبو الفتح الاسكندرى البطل · وكلاهما شـخص خيالى مجهول كما يقول الحريرى ، ويذكر بعض الباحثين أن عيسى ابن هشام الراوية كان شيخا للبديع ، ومنهم مؤلف « تاريخ همذان » أبو شجاع شيرويه م ٥٠٩ هـ ، وينقـل ذلك عنه ياقـــوت فى معجم الأدباء ، ولعـل ذلك وهم نشأ من قـــول البـديع فى مطلع مقاماته : حـدثنا عيسى بن هشـام ·

٢ ـ وموضوع مقامات البديع هـو الكدية ، ولكنها تتناول مـــع ذلك نقـد المجتمع الاسلامى فى القرن الرابع ، وتصوير حياة المسلمين الاجتماعية ، والعقلية فى هـذا العهد ، تصويرا رائعا ·

---

(١٠) راجـع ٢١٢ ـ بديع الزمان للشكعة ·

٣ - ولعل البديع كان يقصد بمقاماته الى كتابة نماذج ادبية فى رائعة يحتذيها الشباب فى دراستهم وحياتهم الأدبية ، أو لعله كان يدل بما له من قدرة على صياغة الأساليب ، واختيار الألفاظ ؛ والتانق فى الجمل والتعبير • فالفاظها مختارة عذبة ، يندر فيها الغريب ، وأسلوبها منمق يكثر فيه السجع والجناس والطباق ، وغيرها من الوان البديع ، ويضمنه بما يناسب المقام من : قرآن أو حديث أو حكمة أو مثل أو شعر • ولكن يؤخذ عليها أن الجانب الفنى فيها للقصة غير متكامل ، فالحبكة القصصية ضعيفة ، والحوادث غير متسلسلة ، والحوار ينقصه التشويق ، والعقدة والمشكلة التى تنتهى بحلها القصة ضئيلة أو معدومة •

- ٦ -

مقامات الحريرى :

١ - وقد انشأ الحريرى (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) خمسين مقامة وفق العدد الذى بقى لنا من مقامات البديع ، وبناها على الكدية ، كما فعل البديع ، ويقول فى مقدمتها : « وانشأت على ما اعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية ناضبة وهموم ناصبة خمسين مقامة ، تحتوى على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، الى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحيرة ، والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية ، مما امليت جميعه على لسان أبى زيد السروجي(١١) ، وأسندت روايته الي الحارث بن همام البصرى •

(١١) هو فيما يقال : المطهر بن سلام البصرى النحوى م ٥٤٠ هـ ، لزم الحريرى وتادب عليه وتخرج به وجعل مقاماته رواية على لسانه ، أما الحارث ابن همام فيعنى به نفسه ، وقيل أن الحريرى ذكر أن السروجى كان شحاذا بليغا وحكيما مليحا ، ورد من البصرة فوقف فى مسجد بنى حرام ، فسلم ثم سال الناس •

٢ - نالت مقامات الحريرى فى عصره وبعد عصره شـــهرة فائقـة ، حتى قال فيها ياقوت فى (معجم الأدباء) : « لقـد وافـق كتـاب المقامات من السعد ما لم يوافق مثله كتـاب عرفته ، فانه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة ، واتسعت لـه الالفاظ وانقادت لـه جوامع البراعة ، حتى أخـذ بأزمتها وملك ربقتها ، فاختار الفاظها وأحسن نسقها ، حتى لو ادعى بها الاعجاز لـما وجـد من يدفع في صدره ، ولا يرد فى قـوله ، لا يأتى بمـا يقاربها ، فضلا عن أن يأتي بمثلها ، ثم رزقت مع ذلك من الشهرة ، وبعـد الصيت ، والاتقان فى استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت وأكثر » ، ولمكانته صارت نمـــوذجا فنيا تقتدى به الشعراء والأدباء فى صناعة الانشاء ، ويحفظه المتأدبون والشداة ، كسبا للموهبة وتنمية للذوق .. وشرحها كثير من العلمـاء من بينهم الشريشى م ٦١٩ هـ ، وعبـد اللطيف البغـدادى م ٦٢٩ هـ ، والعكبرى م ٦١٦ هـ ، وابن الأنبـــارى م ٥٧٧ هـ ، وابن الخشاب م ٥٦٧ هـ ، وسـواهم .

٣ - ويذكر الحريرى أنه ألفها استجابة لمن اشارته حكم وطاعته غنم ، وقـد اختلف فى تفسير ذلك ، فقيـل هـو الخليفة المستظهر بالله كما فى رواية الشريشى ، أو شرف الدين أنوشروان ابن خالد أحـد وزراء المسترشد بالله على ما روى ياقوت وابن خلكان ، وابن طباطبا ، أو ابن صـدقة أحـد وزراء المسترشد أيضـا كما رواه ابن خلـكان على نسخة كتبهـا الحريرى ، أو عـامل البصرة وواليهـا فى بعض نقـــول الشريشى ، أو هـو أحـد أعيان البصرة فى نقـل آخر لـه .

٤ - والموضـــوعات التى بنى عليها الحريرى مقاماته ، هي كتلك التى اختارها البديع وشـغل بهـا بطله ، من نقـد وحوار أدبى ، وهـداية وارشـاد ، وجـدل وحجـاج ، ومعاياة والغاز ، مع ما يستتبع ذلك من وصف الأشخاص والمواضع ، واخراج البطل فى صور مختلفة من صـــور الساسانيين ، الذين انتشروا فى تلك الأزمان ، واحتالوا على الكدية والاستجداء باتخاذ مظاهر الوعاظ ، والعلماء ، والمفتين ، والغزاة ، وأبنـاء السبيل ، والأعراب ، والحـــواة ، والسحرة ، والمشـــــعوذين .

وقد اربى الحريرى فى ذلك على البديع فتزيد عليه في باب الالغاز بما اقتبسه عن ابن فارس ، من المعاياة بالمسائل الفقهية ، وزاد كذلك التلاعب بالصناعات اللفظية التى غالى فيها ، كنشاء رسالة تقرأ من اولها بوجه ، ومن آخرها بوجه ، أو رسالة تقرأ ردا وطردا فلا يحيلها الانعكاس ، أو رسالة تتكون من كلمات معجمة ، فمهملة ، فمعجمة ، فمهملة على التوالى من أولها الي آخرها ، أو رسالة يراغى فى تاليفها تتابع الاهمال والاعجام بين الحروف من غير اخلال ، الى اشباه ذلك من ضروب العبث الذى لا يفيد ، ولا يجدى منه المعنى أو اللفظ أى جدوى ، اللهم الا الضعف والتكلف الممقوت .

٥ - والصنعة البديعية عند الحريرى متكلفة ، فقد أجهد فيها نفسه ، وأعمل من أجلها خاطره ، وتانق كل التانق فى اختيار جملها ، ورصف أساليبها ، وأكثر فيها من البديع والوشى والزينة كثيرا ، وحلاها بحلل ثقيلة من السجع والجناس ، والتورية والطباق ، ولم يبال بالغريب من الألفاظ يتصيده ، والحوشى يستعمله ، مع ما اورد فيها من حكمة ومثل ، وما ضمن من شعر ، وما اقتبس من قرآن وسنة ، وقد ارهقت الصنعة معانيه ارهاقا شديدا .

- ٧ -

وهكذا اضافت المقامات الى الأدب العربى فنا ادبيا جديدا لم يكن له وجود من قبل هو فن القصة القصيرة .

وقدمت المقامات نماذج أدبية جميلة للأدباء والمتأدبين ليحتذوها ويحاكوها ويسيروا على منوالها ، مما يساعد على قوة الملكة والموهبة .

وقد أحيت المقامات كثيرا من مفردات اللغة واساليبها ، ومن صور الأداء والتعبير فيها .

وكتب المقامات وشروحها والدراسات التى وضعت حولها ، كل ذلك كان ثروة للغة العربية وآدابها .

وقد اسهمت المقامات فى بناء النهضة الأدبية الحديثة

فى مصر والعالم العربى ، اذ كانت المقامات من أوائل ما طبع في مصر ، فتداولتها الأيدى ، وتناولها القراء يتأدبون بها ، ويتخرجون عليها فى صناعة النثر .

وقد ظهر فن أدبى جديد متأثر بفن المقامة ، وهو ضرب من الانشاء فيه مشابه من المقامة ، وان كان ليس منها ، اذ لا يعتمد خصائص القصة ولا جانبها الفنى ، وهو مقالات قصار ، تعتمد على الايجاز ، وتقصد الى الوعظ والحكمة ، وتسدى النصح والخبرة وثمرة التجربة الى القراء ، وليس فيها حوار ولا لها راوية ولا بطل ، ولا تساق لغرض الكدية ، وهذا الفن نجده فى مثل كتاب أطواق الذهب لعبد المؤمن الأصفهانى ، وكتاب أطباق الذهب للزمخشرى ، وأسواق الذهب لأحمد شوقى .

وللمقامات بجانب هذه الحسنات آثار سيئة فى اللغة والأدب ، اذ كانت الصناعة البديعية اللفظية المتكلفة السائدة فيها ذات أثر على فن الأدب وأسلوبه وعلى ملكات المتأدبين والشداة ، وأشاعت فن الأحاجى فى الألغاز في الأدب وأبعدت الشباب .

وهذا يدلنا على فضل البديع وسبقه ، والحقيقة أن مقامات البديع اكثر انطباعا ، واشد انسجاما ، وابعد عن زخرف الصناعة وغريب اللغة . أما مقامات الحريرى فابدع فنونة ، وابرع خيالا ، والطف فكاهة ، واكثر أمثالا ، وقد نالت شهرة أكثر مما نالته مقامات البديع ، وترجمت الى اللغات الأوربية .

والحريرى على أية حال أشهر من كتب المقامات بعد البديع وقد نسج على منواله ، وكرر اغراضه بأسلوب جزل ، مع اكثار من الكلمات الحوشية ، وترديه للشعر القديم .

الفصل الثالث

ابن دريد ليس المبتكر لفن المقامات

لقد أشرت الى ذلك اشارات صغيرة فيما سبق ، وحول ذلك دارت بحوث ودراسات كثيرة ، بين من يجعل ابن دريد صاحب الفضل الأول فى نشأة فن المقامة ، ومن بينهم د. شوقى ضيف ومن ينفى ذلك ، ومن بينهم الأستاذ عباس الصالحى فى كتابه « فن المقامة » . وقد كتب الأستاذ محمد السيد الدغيم حول ذلك فى جريدة الحياة العربية التى تصدر من لندن مقالا فى ١٩٩٢/٧/٧ ينفى أن يكون لابن دريد فى نشأة المقامة أى فضل .

يقول الأستاذ محمد السيد : لقد ترجم لابن دريد الكثير من المؤلفين ، كطبقات الشافعية للسبكى (ت ٧٧٣ هـ/١٣٧١ م) ، وطبقات الشافعية لابن قاضى شبهة (٧٧٩ ـ ٨٥١ هـ/١٢٧٧ ـ ١٤٤٨ م) الذى قال فى المجلد الأول ، ص ١١٦ ، الترجمة رقم ٦٣ « أبو بكر الأزدى البصرى ... كان رأسا فى اللغة وأشعار العرب ، وله قصيدة طنانة يمدح بها الشافعى رضى الله عنه ... قال الدارقطنى : تكلموا فيه ... » . وذكره الامام الذهبى (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م) فى كتابه « ميزان الاعتدال فى نقد الرجال » ، فأكد رواية الدارقطنى، وأضاف : « وقال أبو منصور الأزهرى اللغوى : دخلت على ابن دريد، « فرأيته سكران » ، وتوسع فى ترجمة ابن دريد الوزير جمال الدين على بن يوسف القفطى (ت ٦٢٤ هـ/١٢٢٧ م) فى كتابه « انباه الرواة على أنباه النحاة » فساق نسبه حتى أوصله الى : يشجب ابن يعرب بن قحطان ، وذكر أنه ولد فى « البصرة فى سكة صالح ، سنة ٢٢٣ هـ ، ونشأ بعمان ، وتنقل فى الجزائر البحرية ما بين البصرة وفارس ، وطلب الأدب ، وعلم نحو اللغة » . كما ذكر القفطى سؤالهم للدارقطنى ، عن ابن دريد « أثقة هو أم لا ؟ فقال : تكلموا فيه ، وقيل : أنه كان يتسامح فى الرواية عن المشايخ ، فيسند الى كل واحد ما يخطر له » . وذكر القفطى الأزهرى : « دخلت على ابن دريد فرأيته سكران ، فلم أعد اليه » . كما ذكر رواية ابن شاهين

(٢٩٧ - ٣٨٥ هـ/٩١٠ - ٩٩٥ م) الذى قال : « كنا ندخل على ابن دريد ونستحي مما نراه من العيدان المعلقة ، والشراب المصفى ، وقد كان جاوز التسعين سنة » .

ونستطيع أن نقرر فى ضوء ما سلف أن ابن دريد كان من علماء اللغة الشعراء ، ولم يكن ثقة فى الرواية ، وهذا ظاهر فى ميزان الاعتدال ، وتاريخ الاسلام للذهبى (ت ٧٤٨ هـ/١٣٧٤ م) ولسان الميزان - ج/٥ ص ١٣٢ - ، لابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ هـ) ، وغير ذلك من الكتب الموثقة .

ولابن دريد من الكتب :

(١) الجمهرة فى اللغة ، (٢) كتاب السرج واللجام ، (٣) كتاب السحاب والغيث ، (٤) كتاب الملاحن ، (٥) كتاب الاشتقاق ، (٦) كتاب المجتبى ، (٧) الأخبار المنثورة ، (٨) رسالة من أفعل وفعلت (٩) أخبار أبى بكر بن دريد . وله كذلك المقصورة ، وله مرثية للشافعى (١٩٥/٢ تاريخ بغداد) .

وقد ذكرها ابن قاضى شهبة فى طبقات الشافعية ، ح ١/ ص : ١١٦ ، كما أوردها الاسنوى (٧٧٢ هـ/١٣٧١ م) فى كتابه طبقات الشافعية ص : ١٨٥ أيضا . وله مؤلفات أخرى :

(١) كتاب الخيل الكبير ، (٢) كتاب الخيل الصغير ، (٣) كتاب الأنواء ، (٤) ، كتاب المقتبس ، (٥) كتاب رواة العرب ، (٦) كتاب ما سئل عنه لفظا فأجاب عنه حفظا ، (٧) كتاب اللغات ، (٨) كتاب السلاح ، (٩) كتاب غريب القرآن الكريم - لم يتمه ، (١٠) كتاب أدب الكاتب ، على مثال كتاب ابن قتيبة ، ولم يجرده من المسودة ، فلم يخرج ، (١١) كتاب التوسط ... هذا ما ذكره القفطى فى أنباه الرواة ج ٣/ص ٩٦ - ٩٧ ، اضافة الى ما ذكره الكاتب فى مقاله ، كما نجد كتبا أخرى فى فهرست ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م) ، ص ٦١ - ٦٢ ، هى : (١٢) كتاب الوشاح ، وسماه صاحب

كشف الظنون : الوشاح فى الآداب ، (١٣) كتاب المقتنى ، (١٤) كتاب تقويم اللسان ، (١٥) كتاب المطـــر ، (١٦) كتاب الامالي ، ذكره حاجى خليفة فى كشف الظنون وقال : أن السيوطى اختصره فى كتاب سماه : « قطف الوريد » واضافة الى ما سبق نذكر : (١٧) ديوانه ، وقد جمعه السيد محمد بدر الدين وطبع فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر سنة ١٣٦٥ هـ/١٩٤٦ م ٠

وهـذا الايضـاح فى تبيين ما أغفـله الكتاب أو أكثر الباحثين من مؤلفات ابن دريد ، ومن أقوال العلمـاء فيه ، حتى نتمكن من تقـويم صورة واضحة عن ذلك الاديب اللغوى الذى قيل ان لـه أربعين مقامة في روايات أبى علي القالى : « حـدثنا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال : ٠٠٠ » وما ذكره الحصرى (ت ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م) فى كتـابه زهر الآداب (ج ٢٠٧/١) ٠٠ وهـذه حجة ضعيفة ، فلربما وردت تلك الأحاديث « الأقاصيص » فى مؤلفـاته العـديدة ، ولا يشترط أن يكون الف كتـاباً خاصـا بذلك ، ورواية الحصري ليست حجة لبعـد عهـده الزمني ، ومكان اقامته الجغرافى ، وعـدم توثيق الرواية عن السابقين ٠

وكتب الدكتور زكى مبارك مقالا عنوانه : : اصلاح خطأ قـديم مرت عليه قرون فى نشأة فن المقامات » نشره في مجلة « المقتطف » عـدد : نيسان (أبريل) سنة ١٩٣٠ م ، الصفحة : ٤١٨ - ٤٢٠ ، واتهم زكى مبارك الحريرى فى اذاعـة غلط نسبة ابداع فـن المقامات الى الهمذانى ، وقال : « وصـلت الي أن بديع الزمان ليس مبتكر فـــن المقامات ، وانما ابتكره ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ » ٠ واعتمـد مبارك على ما جاء فى « زهر الآداب » للحصرى ، وذكر « دهشـة المسيو مارسيه » حين عرض عليه ذلك النص فى باريس ، كما ذكر دهشة طـه حسين الذى قال لـه : « ارجـع الي كتـاب الأمالي للقالي ٠٠٠ » فرجع اليه مبارك وذكر « حـديث البنات اللاتي وصفن أزواجهن » (ج ١ ص ١٧) وحـديث العاشق الجميل (ج ١/ص ٣٨) وقصـة الكـاهن (ج ١/ص ١٣٤ طبـع بـولاق) والرواد الـذين أرسلتهم مذحج ، وقصة أبي نواس فى الحج ، وأشار الي أن أصول

فن المقامة لم تكن فارسية » كما اشار الى ذلك فى بعض محاضراته الدكتور احمد ضيف » .

وكتب مبارك مقالا آخر بعنوان : « احاديث ابن دريد » نشر فى « المقتطف » عدد : آيار (مايو) سنة ١٩٣٠ م ، صفحة ٥٦١ - ٥٦٤ ، وذكر فيه أن القالى روى عن ابن دريد « اكثر من ستين حديثا بعضها قصير ، وبعضها طويل ... » وقال : « اذا غضضنا النظر عن الأحاديث القصيرة جدا التى نقلها القالى عن ابن دريد وعددناها مما رواه عن شيوخه ، أو مما وقع اليه من كلام الأعراب ، كان ما بقى من احاديثه المتشابهة فى القدر والوضع والاسلوب قريبا من الأربعين » . ثم ذكر وضع ابن دريد واختراعه تلك الأحاديث معتمدا على ما ذكره الحصرى فى « زهر الآداب » ثم ذكر قصة ابى نواس التى وصفها ابن دريد ، واعقب ذلك بذكر اهتمام « ابن دريد بتصوير الشمائل العربية ، وكلفه بنوع خاص بتقديم طائفة من الصور المختلفة عن أخلام النساء فى فهم الرجال ، واعجاب البنات بأعمال الآباء ، وما يقع من الملاحاة بين الأزواج ، والتواصى بين الشباب والكهول ... » وأورد حديث ابن دريد « على لسان أوس بن حارثة : المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ... » وحديث الرجل الأعمى - من أزد السراة - مع الشاب الجميل « يا بن اخى : ان اغترارك بالشباب كالتذاذك بسمادير الأحلام ... » وذكر أن ابن دريد كان « يتعقب اعيان الجاهلية فينطقهم بألوان من الحوار تمثل ، ما كان يحب العرب أن يعرف عن أسلافهم من كرم الطباع ، وشرف الاحساب » .

وتعقيبا على ما كتبه زكى مبارك نشرت « المقتطف » فى « باب المراسلة والمناظرة » ردا للمرحوم مصطفى صادق الرافعي - الطرابلسي أصلا والمصرى اقامة - وذلك فى عدد آيار (مايو) سنة ١٩٣٠ ، الصفحة) ٥٨٨ - ٥٩٠ ، تحت عنوان : - خطأ فى اصلاح خطأ حول نشأة فن المقامات » ذكر فيه مقال الدكتور مبارك ودهشة مارسيه وطه حسين لاكتشافه ، وعلق على ذلك قائلا : « فالمكاتب كما ترى ملك من هذا النص عنصر الدهشة ، وكذلك دهشت انا ، ولكن لا من النص بل

من أن قوما يدرسون للناس تاريخ الأدب ، وهم الى اليوم يجهلون عبارة فى كتاب طبع مرارا مع العقد الفريد ، وطبع نصفه ، وفيه هذا النص ، على حدة ...

« ولم يذكر احد فى أخبار ابن دريد أن له مقامات ، أو احاديث ، وكتبه محصورة معروفة ، وقد ولد البديع بعد وفاته بنحو ثلاثين سنة ، ولا تكون المعارضة عادة الا للمشهور المتداول ، والأحاديث الموضوعة على الأعراب كثيرة لم ينفرد بها ابن دريد والاشهر وضاعها ابن الكلبى ، وابن دريد ينتهى اليه فى أكثر ما يرويه ... وكيف يعارض البديع أربعين حديثا بأربعمائة مقامة شرقت وغربت ، ثم لا يستفيض ذكر هذه المعارضة فى كتب المشرق ، ولا تراه منقولا الا عن رحل من أهل القيروان لا رحلة له ولا سند ، ولا رواية ، وانما يستطرف من كل كتاب ، ومن كل خبر ؟ ... وأن صاحب زهر الآداب يقول - فى أحاديث ابن دريد - أنه استنبطها من ينابيع صدره - يعنى ألفها - فهى من وضعه ، وليست من روايته ، وأنه اذا كان كذلك لم يبق وجه لان يدخلها القالى فى كتابه ، ويلبس بها على الناس ، ويزعمها مروية بالسند عن ابن دريد الى الأصمعى ، أو ابن الكلبى ، ولو فعل لكان كذابا ، وبطلت الثقة به وبكتابه . هذا مضحك ... لا شك عندى أن البديع قلد غيره فى صنعة المقامات ، وهذه كانت طريقته ... وقد وقفت على خبر مصنوع كتب قبل البديع بنحو مائة سنة ، ولو حذف اسم صاحبه منه لما شك أحد انه من كتابة البديع فى مقاماته ، اذ النسق هو هو ، والطريقة واحدة .. » .

رد زكى مبارك على الرافعى بعنوان « حول نشأة فن المقامات - رد على رد » ونشر فى « المقتطف » عدد حزيران (يونيو) سنة ١٩٣٠ م ص ٨١ - ٨٢ . كما نشر فى العدد نفسه ص ٨٢ - ٨٥ ، تعليق على الموضوع لعبد القادر عاشور استعرض فيه نشأة المقامات وقال : « ان مدرسة ابن دريد هى الجسر الذى عبرته المقامات لتصل الى شاطىء الابداع فى التدوين والتصنيف ، وأن عصره هو الحد الفاصل بين المقامة فى المجلس ، والمقامة فى الكتاب ، وان ابن فارس

هـو أول من دون فيها هـذا التدوين المعروف فاطلق عليه لفظها ، وبعـد أن حـذا حـذو ابن دريد فى احاديثه ، ثم جاء بعـده تلميذه بديع الزمان فسار على نمطه ... هـذه هى التى جعلت الحريرى يقول ما يقول ويشهد لصاحبها بالفضل والابداع .

ونشرت فى العـدد نفسه ص : ٨٥ - ٨٦ رسالة بعنوان « بيان حقيقة » تتضمن الاشارة الى أغلاط الحصرى في زهر الآداب » كتبت « على اثر قراءة لقول الأستاذ الرافعى فى المقالة التى رد بهـا على الدكتور زكي مبارك » .

ورد الرافعى فى « المقتطف » عـدد : تموز (يوليو) ١٩٣٠ م ص : ٢١١ تحت عنوان : « حـول نشأة فن المقامات » فقال : « ان ما خلط به الدكتور مبارك فى الكلام عن احاديث ابن دريد نقلا عن أستاذه الدكتور طـه حسين كلام مضحك ... لا ريب ان فى رأس الدكتـور وهما يمـد لـه فى مزاعمه الخيالية .. » .

وللدكتور يوسـف نور عوض - أستاذ كرسى الدراسـات الأدبيـة بجامعتى سوكوتو وعنابة سابقا وسالفورد - كتـاب « فن المقامات بين المشرق والمغرب » تناول فيـه المؤثرات الأدبية والفنية فى صناعة المقامة (ص ٦٥) فذكـر آثـار : ابن دريـد ، وابن فـارس (ت ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م) ، ومقامات الزهاد لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ/٨٨٩ م) التى وردت فى المجلد الثانى من كتاب عيون الأخبار (ص ٣٣٣ - ٣٤٣) بعنوان : مقامات الزهاد عند الخلفاء والملـوك وهى عشر مقامات ، ثم ذكر أثر النماذج الانسانية الفنية فى مقامات الهمذانى (ص : ٨٢) وهى كتاب البخلاء ورسالة التربيـع والتـدوير للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م) وحكاية أبى القاسـم البغـدادى ، لأبى المطهـر الأزدى (ت فى القرن الرابع الهجرى) وقـد نشرها آدم متز سـنة ١٩٠٢ م ، وأشار اليها زكى مبارك فى النثر الفنى ٣٨٨/١ . وذكر الدكتور عـوض أخيرا رسائل اخـوان الصـفا ، وهـذا كله يحتاج الى مناقشـــة .

هكذا نجـد أن كتابات ابن دريد لم تشكل بداية مدرسة المقامات، وقـد فند هـذا الزعم الكاتب عباس مصطفى الصالحى فى كتابه « فن المقامة بين الأصالة العربية والتطـور القصصى » وخلص الى « أن الهمذانى هـو الأديب الذى صـاغ المقامات بشكلها النهـائى المعروف حاليا » واستنتج عـدم وجود تشابه بين مقامات الهمذانى وأحاديث ابن دريد وناقض رأى الدكتور شوقى ضيف بالتشابه . وذكر أن الفرس والعبرانيين عرفـوا فن المقامة بفضل اليهودى يهوذا سلومو الذى ترجم مقامات الحريرى للعبرية .

الفصل الرابع

الأزدى وحكايات أبى القاسم البغدادى وشخصية الخوارزمى

اصدر آدم ميتز هذه الحكايات عام ١٩٠٢ ونشرها هى نفسها الأستاذ عبود الشالجى عام ١٩٨٠ فى بيروت بعنوان « الرملة البغدادية » ٠

والحكايات هى رواية أبى المطهر الأزدى عن أبى القاسم البغدادى ، وهما فى الحقيقة شخصيتان اسطوريتان ، ومن الطريف أن المقامات أبطالها كما يقل شخصيات أسطورية ٠

وقد اثبت أبو حيان التوحيدى حكاية أبى القاسم البغدادى فى مؤلفاته ، كحديثه عن المغنيات البغداديات الموجود فى كتاب « الامتاع والمؤانسة » ، وقيامه عام ٣٦٠ هـ (ذكر تصحيف فى الحكايت عام ٣٠٦) باحصاء المغنين والمغنيات فى جانبى بغداد ، مع جماعة من اهل الكرخ ، وهو مذكور أيضا فى كتاب « الامتاع والمؤانسة » ٠٠

وقد ذكر ياقوت فى معجم الأدباء حكاية أبى القاسم البغدادى أو الرسالة البغدادية من ضمن مؤلفات أبى حيان التوحيدى ٠ فهى اذن له ٠

ويذكر بروكلمان فى « تاريخ الأدب العربى (١٤٨ ج ٣) أن أبا المطهر اسمه ابن المطهر ، وحرف الى « أبى المطهر » ، وأنه هو محمد بن أحمد المطهر الأزدى(١) وأنه الف فى المائة الخامسة للهجرة حكاية أبى القاسم البغدادى التميمى(٢) مصورا بذلك نموذجا بغداديا أصيلا من العادات والتقاليد ، فعرض حياة بغدادى طفيلى ظريف فصيح ذرب اللسان يقص مغامراته ٠ وأحاديثه فى يوم كامل ببغداد ٠

---

(١) توفى عام ٤٨٥ هـ ٠

(٢) وهى التى نشرها آدم متيز عام ١٩٠٢ فى هايدلبرج عن نسخة فى المتحف البريطانى ٠

أبو بكر الخوارزمى

٣٢٣ — ٣٨٣ هـ

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى الكاتب الشاعر العالم اللغوى الأديب النحوى الاخبارى ، الرحالة ، اديب خوارزم ، وبليغ المشرق ، وصاحب الرسائل المشهورة .

كان أصل آبائه من طبرستان ، وولد بخوارزم سنة ٣٢٣ هـ ونشأ بها . وكان متبحرا فى كل فن من فنون العربية وخاصة الكتابة والشعر ، جاب الأقطار ، ودخل الأمصار فى طلب العلم والأدب ، وتقلب فى خدمة كثير من الملوك والأمراء والوزراء ، ولقى سيف الدولة وخدمه بالشمام ، ثم شرق الى بخارى ونيسابور وسجستان وغيرها ، حتى وافى الصاحب الوزير بأصبهان ، فكان من جملة المختصين به . ثم ذهب الى عضد الدولة بشيراز ، فصدر عنه بالأموال الطائلة ، فاستوطن نيسابور ، وأقام بها للاملاء والتدريس ، فنكب نكبة سجن فيها ، وفر الى الصاحب ، ثم عاد الى نيسابور . قال الثعالبى : « وطاب عيشه بها الى ان رمى فى آخر أيامه بداهية من البديع الهمذانى ، وبلى بمساجلته ومناظرته ومناضلته ، واعان البديع عليه قوم من الوجوه ، فلاقى ما لم يكن فى حسبانه ، وأنف من تلك الموقف ، وانخذل انخذالا شديدا ، وكسف بالـه ، ولم يحل عليه الحول حتى مات سنة ٣٨٣ هـ » .

ومنزلته فى الكتابة لا تنكر ، ويمتاز عن الصاحب بجزالة اللفظ وفخامته ، وكثير من الناس يفضله عليه ، ويمتاز البديع عنه برقة العبارة وقصر السجع ، وكان يتشيع ، وله فى ذلك رسائل بديعة ، وله ديوان رسائل طبع فى الآستانة وغيرها ، وفيه الكثير من رسائله البليغة المطولة .

بديـع الزمـان الهمـذانى

٣٥٨ - ٣٩٨ هـ

- ١ -

هـو بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيي بن سعيد الهمـذانى الكاتب المترسـل ، والشاعر المبـدع ، حافظ عصره ، وذكى دهـود ، وقـدوة الحريرى فى انشاء المقـامات ، وقريع الخـوارزمى فى المبتدعات والمكاتبات . نشأ بهمذان ودرس العربية والأدب على ابن فارس وغيره ، وورد على الصـاحب فاقتبس من أدبه وماله ، ثم ضرب فى الأرض يتكسب بالأدب فأقام بنيسابور مدة أملى بها أربعمائة مقامة فى الجـد والهزل نحلها أبا الفتح الاسكندرى محـدثا عن عيسى بن هشام بلفظ أنيـق ، وسجع رقيق ، وعلى منوالها نسج الحريرى مقاماته ، واحتذى حـذوها ، واعترف بفضل السبق لـه ، ثم شجر بينه وبين الخوارزمى ما كان سـببا لهبوب ريحـه وبعـد صـيته ، اذ لم يكن فى الحسبان أن أحـدا يجترىء على الخوارزمى أو يتحكك به ، فانتصر لهـذا قـوم وتعصب لهـذا آخرون ، واتفق أن مات فى أثنـاء ذلك خصمه ، فخلا لـه الجـو عند الملـوك والرؤسـاء ، وتجـول فى حواضرهم . فلم يبـق بلـد فى خراسان الا دخله الى أن ألـقى عصاه فى هراة ، وصاهر أحـد أعيانها من العلمـاء ، فطاب عيشه ، ونعم باله ، ولكن المنية عاجلته وهـو فى سن الأربعين ٣٩٨ هـ . قيـل انه مات مسموما ، وقيل انه مات بالسكتة ، وعجل دفنه ، فأفلق فى قبره وسمع صوته بالليل . وأنه نبش قبره فوجـدوه وقـد قبض على لحيته ومات من هـول القبر .

وكان البديع أسرع أهـل زمانه بديهـة ، واكثر شـعره وكتابته مرتجـل ، وكانت عبارته سهلة لينـة قصيرة السجع . تشهد عـذوبة لفظها ، وتدفق جملها ، بأن صاحبها قالها طبعـا من غير ان يكدح خاطرا ، او يتعمد صناعة ، ولا غرو فقـد قيل : انه كان يلقى عليـه القصيدة الفارسية فيترجمها فى الحال شعرا الى العربية . وكان لجريان

طبعه وتوقد ذهنه وتمكنه من صناعته ، يتعمد ان يكتب الكتاب الذى يقترح عليه ، فيبتدىء بآخر سطوره ، ثم هلم جرا الى الأول ويخرجه كأحسن شىء وأصلحه .

— ٢ —

ومقامات الهمذانى هى حكايات أو قصص قصيرة ، انشأها بديع الزمان من الحوادث التى وقعت له أو شاهدها فى أثناء رحلاته الكثيرة فى بلاد خراسان وما جاورها . وقد كتبها فى نيسابور بعد أن عاشر كثيرا من الناس ، وخالط العامة والخاصة هناك . ويظهر أن التسول كان ذائعاً وكانت حيل المتسول معروفة لديه ، وقد عرف بعضهم واتصل به . وكان كثير من الأدباء اذ ذاك على هذه الحال . فيكتب مقاماته يصف فيها حالة هؤلاء ، وعزاها الى رجل سماه أبا الفتح الاسكندرى ، ونسب روايتها الى رجل آخر سماه عيسى بن هشام . وقد يكون فى حياة أبى الفتح الاسكندرى شىء من صفات بديع الزمان نفسه ، وشىء من أخلاقه ، لأنه كان ممن يسأل بأدبه ، ولأن حياته كانت فى جملتها على هذا النحو من الرحلة والسؤال . وموضوع مقاماته أن رجلا شحاذا أديبا وهو ابو الفتح الاسكندرى كان يجول فى البلاد ويتفنن فى أساليب الاحتيال للحصول على المال . وكل مقاماته التى تنيف على الخمسين لا تخرج عن هذا الغرض ، ولكنها تمتاز بدقة أسلوبها ، وسلاسة ألفاظها واختيار عباراتها ، واشتمالها على كثير من المعانى الطريفة ، والألفاظ اللغوية ، وعدم التكلف الظاهر . حتى لقد يبدو أحيانا أن اسلوبها أقرب الى الكلام الفطرى منه الى التعمل والصنعة . وهى مسجوعة ، ولكن سجعها رفيق سهل ، احتوى على كثير من المحسنات البديعية ، والاستعارة والمجاز .

الفصل الخامس

مقـــامات البـــديع

فى المقامة الأولى « القريضية » يذكر البديع أن عيسى بن هشام حدثه فقال : طرحتنى النوى مطارحها ، حتى وطئت جرجان الأقصى » ، وفيها لقى أبا الفتـــح الاسكندرى دون أن يعـرف كل منهما صاحبـه ، وأخـذ أبو الفتح يحـدثه عن الشعراء ، ثم انصرف ، فقـــال عيسى ابن هشام فى نفسه : الاسكندرى والله ·

والمقـامة الثانية هى الأزادية ، وفيها يستجدى ابو الفتح النـاس ومعـه عيـاله وأطفـاله ·

والثالثة هى البلخية ، وفيها ينسب أبو الفتح نفسه الى قريش ·

والرابعـة هى السجستانية ·

والخامسـة الكوفيـة ·

والسادسة الأسـدية ، وفيها يقول عيسى بن هشام عن أبى الفتح : وانا اسـأل الله بقاءه ، حتى أرزق لقاءه ، واتعجب من قعود همته مـع حسن اكتسابه ·

والســابعة هى الغيـلانية ·

والثامنة الأذربيجانية ، وفيها يقول أبو الفتح عن نفسه : أنا جوالة البـلاد وجـوابه الآفـاق ·

والتاسعة هى الجرجانية ، وفيها يقـول أبو الفتح عن نفسه : انى امرؤ من اهـل الاسكندرية ، من الثغـور الأموية ·

والعاشرة : الأصـــفهانية ٠

والحادية عشرة : الاهـــوازية ٠

والثانية عشرة : البغـدادية ٠

والثالثة عشرة : البصـــرية ٠

والرابعة عشرة : الفـــزارية ٠

والخامسة عشرة : الجاحظية ، وفيها ينشد أبو الفتح شعرا لـه : اسـكندرية دارى الخ ٠

والسادسة عشرة : الكـــوفية ٠

والسابعة عشرة : البخارية ٠ وفيها يقول عيسى بن هشام : غزوت الثغر سنة خمس وسبعين ، ويريد منــه خمسـا وسـبعين وثلاثمـــائة بالضـــرورة ٠

والثامنةعشرة : القـــزوينية ٠

والتاسعة عشرة : الساسانية ، وتدور أحـداثها فى دمشق ، وفيها يجعـل أبا الفتح زعيم الكتيبة الساسانية ٠

والحادية والعشرون : الموصليـــة ٠

والثانية والعشرون : المضيرية ، وأحـداثها فى البصرة ٠

والثالثة والعشرون : وفيهـا يقـــول أبو الفتـــح عـن نفســـه : أنا من بلاد الاســكندرية ٠

والرابعة والعشرون : المـارستانية ، ويريد مارستان البصرة وفيها يؤكـد أن اسكندرية داره ٠

والخامسة والعشرون : وفيهـا يقــول أبو الفتــح عن نفســه : أنا من ذوى الاسكندرية ٠

والسادسة والعشرون : الوعظيــة ٠

والسابعة والعشرون : الأســدية ٠

والثامنة والعشرون : العراقية ، وفيها يقول أبو الفتح : أنا عيسى الأصــل ، اسـكندرى الــدار ٠

والتاسعة والعشرون : الحمدانية ٠ وفيها يقول عيسى بن هشام : حضرت مجلس سيف الدولة يوما ، ويقــول أبو الفتح عن نفسه : من الثغور الأموية ، والبلاد الاسكندرية ٠

والثلاثون : الرصــافية ، ويذكر فيهــا حيل الساسانيين ، وفيهــا يقــول عيسى بن هشام : فقــام كهل منهم ٠

والحادية والثلاثون : المغــــزلية ٠

والثانية والثلاثون : الشيرازية ، وفيها يقــول عيسى بن هشام : دخــل كهل قــد غبر فى وجهه الفقر ٠

والثالثة والثلاثون : الحلــوانية ٠

والرابعة والثلاثون : النهيـــدية ٠

والخامسة والثلاثون : الأبليســـية ٠

والسادسة والثلاثون : الأرمينيـــة ٠

والسابعة والثلاثون : ويقول فيها فضل الأمير على ابن العميد كفضل قريش على باهــلة ٠

والثامنة والثلاثون : الخلفيــة ، ولعــل النسبة الى خلف بن أحمد أمير نيســابور ٠

والتاسعة والثلاثون : النيســـابورية ٠

والأربعون : العلمية ، وفيها يذكر أبو الفتح ما سبق أن ذكره : اسكندرية دارى ٠

والحادية والأربعون : الوصـــية ، وفيها يقـــول : لمـا جهـز أبو الفتح ولـــده للتجارة ٠

والثانية والأربعون : الصيمرية ، وفيها يقول عيسى بن هشام : قال محمد بن أسوان المعروف بأبى العنبس الصيمرى (٢٧٥ هـ) ٠

والثالثة والأربعون : الدينـــارية ٠

والرابعة والأربعون : الشـــعرية ٠

والخامسة والأربعون : الملوكية ، وفيها ذكر ســـيف الدولة وذكر الأمير (خلف) ٠

والسادسة والأربعون : الصـــفرية ٠

والسابعة والأربعون : المـــــــارية ٠

والثامنة والأربعون : التميميـــة أو الحـــرامية ٠

والتاسعة والأربعون : الخمـــرية ٠

والخمسون : المطليـــة ٠

والحادية والخمسون : البشـــــرية ٠

الفصل السادس

تطـــور فـــن المقـــامة الحـــــــــريرى

٤٤٦ - ٥١٦ هـ

- ١ -

هو(١) أبو محمد القاسم على بن محمد بن عثمان الحريرى البصرى اللغـوى النحوى الكاتب الشـاعر صاحب المقـامات المشهورة والبدائع المـأثورة ، وهـو عربى صميم من بنى حـرام . ولـد ٤٤٦ هـ بمشان البصرة(٢) ، ونشـأ بالبصرة وانقطع لتعـلم العربية من اللغـة والنحـو والأدب ، حتى صـار نادرة زمانه ولا سيما الانشـاء ، فجـارى البديع فى اختراع مقامات متخيلة القصص يأتى فيها على كثير من مواد اللغـة وفنون البلاغة وأمثال العرب وحكمها ، واتفق أن أعرابيـا فصيحا يسمى أبا زيد قـدم البصرة من سروج(٣) ، فأعجب أهـل البصرة به ، فنحله الحريرى وقائع مقاماته ، وسمى راويهـا الحـارث ابن همام يريد نفسه أخـذا من الحـديث « كلكم حارث وكلكم همام » ، فالحارث : الكسب . والهمام : كثير الاهتمام . وأول مقامة صنفها هى المقامة الحرامية الثامنة والأربعـون ، وعـدة المقامات خمسون مقامة ، صنفها للوزير جمال الدين وزير المسترشد هكذا وجـد بخطه ، وقيل : انه عملهـا للوزير أنوشروان وزير المسترشد أيضـا ، وقـد استعظمها عليه حساده ، وزعموا أنهـا لمغربى قـدم البصرة ومات بهـا .

ومن يطلع على مقاماته ويعـرف مغازيها ومراميها وبلاغـة

---

(١) ١٢٨ الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى الخفاجى .

(٢) هى قرية قريبـة من البصرة ، كثيرة النخـل ، وكان لـه فيهـا ١٨ ألف نخلة .

(٣) بلـد بالجـزيرة .

عباراتها ، يعرف ما كان عليه الرجل من الفضل الجم والأدب الغزير.
وقد شرحت المقامات عدة شروح وترجمت الى عدة لغات وغاية ما أخذه كتاب الفرنجة عليها : وحده مغزاها وأن أكثرها لا يخرج عن اكتساب المال بطرق خسيسة كالشحاذة والاستجداء ، وللحريرى العذر فى ذلك لأنه فرض روايتها عن الأعراب ، وهم كانوا لا يقدمون المدن الا منتجعين مستجدين ، وكان الحريرى على غناه قذرا وسخا قصيرا دميما ، يولع بنتف لحيته ، وله ديوان رسائل وشعر جميل وتآليف شريفة ، منها : درة الغواص فى أوهام الخواص ، وملحة الاعراب فى النحو ، والمقامات مطبوعة مشهورة .

- ٢ -

وقد نسج الحريرى(٤) علي منوال الهمذاني في مقاماته ، فقلده فى أسلوبها ، ونظمها وموضوعاتها وصفات راويها ، فقد جعل أبا زيد السروجى الذى عزا اليه مقاماته ، مثل أبى الفتح الاسكندرى : رجلا أديبا محتالا ، وكأنما أخذ أوصافه من أوصاف ذلك الرجل ، وكانت موضوعاته أشبه بموضوعات مقامات البديع ، لأن الحريرى وصف أبا زيد السروجى بأنه فقير محتال ، يستعمل ذكاءه وقوة بيانه فى كسب عطف الناس عليه واستدرار أموالهم ، كما وصفه بأنه شاعر بليغ وخطيب مفوه ، وشحاذ ملح فى السؤال ، امتلأت نفسه بالاحتيال على الناس ، ينتقل من مكان الى مكان ، ويرحل من بلد الى بلد للسؤال ، وقد اتخذ ذلك حرفة له . وكل مقاماته وصف لنفس هذا الرجل ، أو صور لبعض الناس . ولا سيما الأدباء منهم ، وبيان لما هو كامن فى نفوسهم من أطماع وحيل ، واستعمال ما وهبوا من فصاحة وبلاغة فى ذلك . وقد أطنب الحريرى فى ذكر صفات أبى الفتح الاسكندرى.
أما أسلوب مقاماته فأظهر شىء فيه تعمد السجع والصناعة اللفظية . ولكن للتكلف لا يظهر فى كثير منها ، بل لقد يكون السجع حلية

---

(٤) ولد أبو القاسم بن على الحريرى سنة ٤٤٦ هـ بقرب مدينة البصرة ونشأ بالبصرة ، فاتصل بكثير من علماء اللغة العربية وأخذ عنهم فنونها وعرف كثيرا من مفرداتها ، حتى صار اماما فى ذلك . وألف كتبا فى اللغة منها : درة الغواص فى أوهام الخواص ، وكان شاعرا وأديبا وكاتبا ومؤلفا ، ومن أشهر ما كتب مقاماته المعروفة ، ويحسب الحريرى بهذه المقامات من أشهر أدباء العرب وأكبر كتابهم .

لكلامه ، وسببا لحسن ديباجته ، ولولا ذلك لكان كلامه غير مقبول لقلة معانيه أو تكرارها • ومن مميزات أسلوب هذه المقامات انها جعبة ألفاظ لغوية ، وجمل مختارة ، وأمثال سائرة ، وأشعار رقيقة ، وقد ولع الحريرى بالصناعة اللفظية ككل كتاب زمانه • وأكثر من أنواع البديع ولا سيما التورية والجناس ، ولكنه دل على نبوغ فائق فى هذا النوع من الكتابة الفنية •

ومن مقامة للحريرى يوصى ابنه بالكدية والشحاذة وهى تصوير لفكر الساسانية وأدبها :

يابنى ، انى جربت حقائق الأمور ، وبلوت تصاريف الدهور ، فرأيت المرء بنشبه لا بنسبه ، والفحص عن مكسبه لا عن حسبه ، وكنت سمعت ان المعايش امارة وتجارة ، وزراعة وصناعة ، فمارست هذه الأربع ، لأنظر أيها أوفق وانفع ، فما أخذت منها معيشة ولا استرغدت بها عيشة ، اما فرص الولايات ، وخلس الامارات ، فكأضغاث الأحلام ، والفيء المنتسخ بالظلام ، وناهيك غصة بمرارة الفطام ، اما بضائع التجارات ، فمرضة للمخاطرات ، وطعمة للغارات ، وما اشبهها بالطيور الطيارات • واما اتخاذ الضياع ، والتصدى للازدراع ، فمنهكة للأعراض ، وقيود عائقة عن الارتكاض ، وقلما خلا بها عن اذلال ، أو رزق روح بال ، وأما حرف أولى الصناعات ، فغير فاضلة عن الأقوات ، ولا نافقة فى جميع الأوقات ، ومعظمها معصوب بشبية الحياة ، ولم ار ما هو بارد المغنم ، لذيذ المطعم، وافى المكسب ، صافى المشرب ، الا الحرفة التى وضع ساسان أساسها ، ونوع أجناسها ، واضرم فى الخافقين نارها ، وأوضح لبنى غبراء منارها، فشهدت وقائعها معلما ، واخترت سيماها لى ميسما • اذ كانت المتجر الذى لا يبور ، والمنهل الذى لا يغور ، والمصباح الذى يعشو اليه الجمهور، أو يستصبح به العمى والعور ، وكان اصلها أعز قبيل ، واسعد جيل ، لا يرهقهم مس حيف ، ولا يقلقهم سل سيف ، ولا يخشون حمو لا سع ، ولا يدينون لدان وشاسع ، ولا يرهبون ممن برق ورعد ، ولا يحفلون بمن قام وقعد • أنديتهم منزهة ، وقلوبهم مرفهة ، وطعمهم معجلة ، وأوقاتهم غير محجلة • اينما سقطوا لقطوا ، وحيثما انخرطوا خرطوا ، لا يتخذون أوطانا ، ولا يتقون سلطانا ، ولا يمتيزون عما تغدو خماصا وتروح بطانا

ومن مقامات الحريرى المقامة الاسكندرانية ، التى تتضمن مخاصمة أبى زيد مع امرأته أمام القاضى مما يمثل حبل الساسانيين وأدبهم فمنهـا :

« ... فبينما انا عند حاكم الاسكندرية ، فى عشية عرية ، وقد أحضر مال الصدقات ، ليفضه على ذوى الفاقات ، اذ دخل شيخ عفرية، تعتله امرأة مصبية . فقالت : أيد الله القاضى ، وأدام به التراضى ، انى امرأة من أكرم جرثومة ، وأطهر ارومة ، وأشرف خؤولة وعمومة ، ميسمى الصون ، وشيمتى الهون ، وخلتى نعم العون ، وبينى وبين جاراتى بون ، وكان أبى اذا خطبنى بناة المجد ، وأرباب الجد ، سكتهم وبكتهم ، وعاف وصلتهم وصلتهم ، واحتج بأنه أعاهد الله تعالى بحلفة ، الا يصاهر غير ذى حرفة ، فقيض القدر لنصبى ووصبى ، أن حضر هذا الخدعة نادى أبى . فأقسم رهطه ، أنه وفق شرطة ، وادعى أنه طالما نظم درذ الى درة ، فباعها ببدرة . فاغتر أبى بزخرف محاله ، وزوجنيه قبل اختبار حاله . فلما استخرجنى من كناسى ، ورحلنى عن أناسى ، ونقلنى الى كسره ، وحصلنى تجت أسره ، وجدته قعدة جثمة ، وألفيته ضجعة نومة . وكنت صحبته برياش وزى ، وأثاث ورئى . فما برح يبيعه فى سوق الهضم ، ويتلف ثمنه فى الخضم والقضم ، الى أن مزق مالى بأسره .

مقـــامات اليـــازجى

عالج الشيخ ناصيف اليازجى فن المقامة كما عالجـــه عـدد من معاصريه كأحمد البربيرى ، وابراهيم الأحـدب ، وعبد الله فكرى ، وفارس الشدياق وسواهم . الا أن اليازجى قـد تفوق عليهم ونال قصب السـبق فى هـذا المضمار بمقاماته الستين التى قلـد فيها الحريرى واحتذاه فى مقاماته ، حتى انه أطلق على احدى مقاماته « السروجية » نسبة الى بطل مقامات الحريرى « أبى زيد السروجى » وضمنها شطرا من ابياته هـو : « سروج ياناق فسيرى وخـدى » ..

وقـد اختار اليازجى لمقاماته بطلا أسماه ميمون بن خزام ، وراوية هـو سهيل بن عبـاد وجعـل معـه فى عـدد كبير من مقاماته ابيته ليـلى وغـلامه رجبـا ..

وكلا البطل والراوية لا يختلفان فى شىء عن بطل الحريرى وراويته ميمون بن خزام كالسروجى فى المكر والدهاء وذلاقة اللسان .. وكذلك يتفق سهيل بن عبـاد مع الحارث بن همام فى حب العلم والأدب والتنقـل من بلـد الى بلـد ، والتقائه بالبطل وتعرفه عليه ، بعـد أن يحاول التخفى والتنكر . كما أن اليازجى يقلـد الحريرى فى اطلاق أسماء البلاد على مقاماته .. بل يشاركه فى أسماء كثير من البـلاد التى أطلقهـا على مقاماته ، كالمقامة البدوية التى تسمى عند الحريرى « البكرية » أو « البـدوية » ، والمقـامة الحجـازية والعمـانية والاسـكندرية والمكيـة وغيرها .

ويقلده فى انه يبدأ مقاماته بمقامة يتعرف فيها سهيل بن عباد على ميمون بن خزام وينهيها بتوبة البطل وأن كان اليازجى لا يكتفى بأن يحج بل يجعله يزور بيت المقـدس ، وكأنه يصـنع ذلك ليرضى بذلك المسلمين والمسيحيين فى لبنان ، ويقلده فى أن البطل كثيرا ما يبدأ فى المقـــامة واعظـا ، وينتهى فيها الى الفسق ومعاقرة الشراب ..

وهـو مثل الحريرى قـد يختلق المشاجرات بين البطل وزوجتـه التى

هى ابنته ليلى ق كما يحتال على القضاة مثله فى أكثر من مقامة ويشاركه فى حشو مقاماته بالألغاز والصور البديعية كما يمزج مثله فى مقاماته بين الشعر والنثر ، وان كان شعره متكلفا غثا لا يرقى الى مستوى شعر الحريرى الرائع فى كثير من قصائده ، وتسود مقامات اليازجى - كما تسود مقامات الحريرى - روح التشاؤم، وسوء الظن بالناس ٠٠

ويقال أن اول مقامة أنشأها هى المقامة العقيقية التى عرضها على أعضاء الجمعية السورية ، فأعجبوا بها ، فانشأ ستين مقامة اطلق عليها (مجمع البحرين) أى بحر النثر والشعر ٠ وقد قرظها عدد من شعراء وأدباء عصره ، كشهاب الدين العلوى الموصلى ، وسركيس ، وابراهيم كرامة ، وغيرهم ٠

واليازجى فى مقاماته يحذو حذو الحريرى ، والواقع انه قد تتبع خطاه وسار على نهجه فى الموضوع والأسلوب ٠ فمن الموضوعات التى طرقها : الوعظ كما فى المقامة الأولى (العقيقية) ، وان لم تكن الأولى فى ترتيب المقامات المطبوعة ٠٠ وفيها يعظ ميمون بن خزام الناس قائلا : يكرام الناس والعشائر وأولى الأبصار والبصائر ٠٠ ارأيتم ما أحرج هذا البيت واسمج هذا الميت طاوا جد وكد واشتد واعتد وركب الأهوال واحتشد الأموال ، فانورو أين ما جمع وهل أتى بشىء منه الى هذا المضطجع ٠٠٠ الخ ٠

ويصور فى بعضها حيل المكدين كادعاء ميمون انه خطب لابنه ، واحتياله فى تحصيل المهر كما فى المقامة « الحجازية » ٠٠ لكنه فى اغلب مقاماته يطرق موضوعا محببا الى نفسه ، هو موضوع اللغة ، وما يتصل بها من صور البديع ، وهو يحاول أن يتفوق على الحريرى ويبزه مغاليا فى ذلك ٠٠ فهو ينظم اراجيز يسجل فيها أسماء المطاعم والنيران والساعات والرياح وبرد العجوز كما فى المقامة « الخزرجية » ، أو يعرض منظومات فى الجناس ، كما فى المقامة « الرملية » ، او يضمنها مسائل فى دقائق النحو والصرف واراجيز فى علم النحو والعروض ٠

الباب الثانى

شخصية أبى الفتح الاسكندرى
بطل مقامات البديع

الفصل الأول

أبو الفتح ليس شخصية أسطورية

- ١ -

كان ابتكار البديع الهمذانى (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ ، ٩٦٩ - ١٠٠٧ م) فى القرن الرابع الهجرى لفن المقامة حدثا أدبيا جديدا فى الأدب العربى.

فلقد بهر الأدباء والنقاد والرواة أسلوبها ، ونزعة القصة فيها ، وهذا الحوار الذى طالما دار بين بطلها أبى الفتح الاسكندرى وراويتها عيسى بن هشام ، كما بهرهم هذا النموذج الفنى الرفيع الذى تمثل فى شخصية الساسانى أبى الفتح البطل.

وفتن الناس بمقامات بديع الزمان افتتانا شديدا. وليس هناك الا البديع نفسه ، فهو أبو المقامة فى الأدب العربى ، صاحب الفضل فى انشائها(١) ، ويؤيد ذلك الحريرى أبو محمد القاسم بن على البصرى (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) فى مقدمة مقاماته ، فقد جعل ابتداع المقامات راجعا الى بديع الزمان ، وعلامة همذان ، وكذلك جعل الثعالبى فى «اليتيمة» البديع أبا عذرتها ، والواضع لأصولها وخطتها. ويتابعهم فى ذلك كثيرون ، منهم مارون عبود مثلا ، اذ يقول(٢) : أن خطة المقامات من عمل البديع ، فهو الذى ألبسها هذا الطراز ، وعلى طريقه هذه التى شقها سارت عجلة الأدب ألف عام ، وعبثا نحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع.

وكذلك ذهب مازن المبارك الذى يقول(٣) : فتح البديع باب فن جديد هو فن المقامة فى الأدب العربى.

---

(١) ٩٥ الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى الخفاجى.

(٢) ٢٤ « بديع الزمان » لمارون عبود.

(٣) ص ١٦ « مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته » - مازن مبارك.

هـذا هو الرأى السائد ، ولكن الحصرى صاحب كتاب « زهـر الآداب » يذهب فى كتـابه(٤) الى أن البـديع اقتبس فن المقـامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ) ، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكى مبارك(٥) أن البديع ليس هـو المبتكر لفن المقـامة ، وأن كان لـه فضـل فى نشأتها ، وينفى مؤلف كتاب « بديع الزمان رائد القصـة القصيرة » وهـو مصطفى الشكعة(٦) أن تكون احاديث ابن دريد ذات صـلة بفن المقامة كما عرف عند البديع .

ويجعل آخرون البديع محتـذيا حـذو استـاذه ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) فى رسائله الحوارية .

ويذكرون آخرون ، ومن بينهم شوقى ضيف(٧) ، أن البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه فى البخلاء والحيوان والمحاسـن والأضـداد عن أهـل الكدية ، ومـع جواز فى المضمون ، فان شكل المقامة الفنى يبـقى جـديدا كل الجـدة عند البديع . وهناك على أى حال فرق بين البذرة والثمرة فى أى عمل ادبى أو غير ادبى .

ويجعل بعض المستشرقين اسـاطير التـوراة عند اليهود وقصـة لقمان هما الملهمتين للبديع بفكره المقـامات ، ويذكر آخر أن قصص جحا فى الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر فى نشأة المقامة ، وهـذا كلـه كلام يعوزه الدليـل ، ولا تنهض به الحجة(٨) .

ويذهب آخرون الى أن المقامة مقتبسة من أصـل فارسى ، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قـد وجـدت فى الأدب الفارسى قبـل بديع الزمان ، اذ لم تعرف المقامة فى الأدب الفارسى

---

(٤) ١ : ٢٣٥ « زهر الآداب » .

(٥) « النثر الفنى » لزكى مبارك .

(٦) ص ٢٠٧ « بديع الزمان » للشـكعة .

(٧) ٢٠ « المقـامة » لشوقى ضيف ـ طبع دار المعـارف .

(٨) راجع ١٤٦ « الحياة الادبية فى الاندلس والعصر العباسى الثانى » للمؤلـف .

الا بعـد البديع بنحـو قرن ونصف من الزمان ٠٠ فاول مقامات كتبت بالفارسية هى للقاضى حميد الدين البلخى الذى بدأ بكتابتها عام ٥٥١ هـ وتوفى بعـد ذلك بسبع سنوات (٥٥٨ هـ/١١٦٤ م) كما يقول براون ، ويؤكد محمـد تقى بهار(٩) أن المقامة من اختراع البديع ، وان كل اختراع فى الأدب العربى كان لـه صداه فى الأدب الفارسى ، وأن حميد الدين قلـد البديع والحريرى فى مقاماته ، ويذكـر الأنورى اعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين ٠

ان هـذه القصـة الحوارية القصيرة ، ذات المنهج الفنى الملتزم والصياغة الطريفة ، والصيغة الجـديدة ، والفكرة الساسانية ، التى دعيت مقامة ، قـد أنشاها بديع الزمان الهمـذانى لتجابه مطالب الحياة الفنية والأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجـددة فى عصره ٠

ولقـد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلا ساسانيا هـو ابو الفتـح الاسكندرى ، وهـو الذى مثل كل أدوارها ، ونهض بجميع فصـولها ، وقـام بكـل احـداثها ٠

وشخصية أبى الفتح ـ كما تبدو من خلال المقامات ـ شـخصية رائعـة حقا ، فهو بطـل للوقف كله فى المقامة ، وهـو ـ كما يصـوره الهمـذانى ـ عالم واديب وشاعر ، وهـو ناقـد بليغ ، ومغامر محتال ماهر ، مشرد فى الآفاق ، تقسو عليه ظروف الحيـاة فـلا يجـد امامه الا الكدية والاحتيال بكل اسلوب من اجـل المـال أو الطعام ٠ وهـو الى ذلك كلـه مجرب حكيم خبير بالأيام وصروفها ، عركها وعركته ، يجوب الآفاق ويخطب فى الأندية ويهـز الناس بفصاحته وبلاغته ٠

وكنية ابى الفتح لعـل البديع رمز بهـا الى فتوحات هـذا البطل وانتصاراته فى مواقفه العجيبة فى الكدية ٠

أما وصف الاسكندرى الذى لازمه فقـد يكون معززا لذلك المعنى على انه نسبة الى الاسكندر ، فتكون فتـوحات ابى الفتـح فى أموال

---

(٩) « تاريخ تطور النثر الفارسى » محمد تقى بهار ٠

الناس شبيهة بفتوحات الاسكندر · وقد يناقض ذلك أن أبا الفتح يكرر فى مقاماته قوله « اسكندرية دارى »(١٠) ، نسبة الى الاسكندرية لا الى الاسكندر الأكبر المقدونى (٢٥٦ - ٣٢٣ ق م) ·· ويصح لنا أن نجمع بين الأمرين ، فتكون نسبته الى الاسكندرية مقصودا بها الرمز الى شبهه فى فتوحاته الساسانية بفتوحات الاسكندر التى تنتسب اليه مدينته ·

ويقومنا ذلك الى التساؤل : أى اسكندرية كان يعنى البديع ، وكان ينتسب اليها أبو الفتح الساسانى ؟

فى المقامة التاسعة الجرجانية يقول أبو الفتح البطل متحدثا عن نفسه : انى امرؤ من أهل الاسكندرية من الثغور الأموية · وفى المقامة التاسعة والعشرين الحمدانية يقول من الثغور الأموية والبلاد الاسكندرية · ويكرر أبو الفتح نسبته الى الاسكندرية فى مواضع كثيرة أخرى ·

فاذا رجعنا الى ياقوت(١١) وجدناه يذكر أن الاسكندر بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه ، ثم تغيرت أسماؤها بعده ، فمنها : اسكندرية مصر ، والاسكندرية التى صار اسمها سمرقند ، والتى صارت مرو ، والتى سميت بعد باسم بلخ ، واسكندرية الأندلس التى على النهر الأعظم - نهر اشبيلية - وهى التى رجحها الامام محمد عبده لوصف البديع لها بأنها من الثغور الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس فى القرن الرابع الهجرى عصر البديع ، الا أنى وجدت رحالة عربيا فى القرن الرابع - هو ابن دلف - يذكر مدينة المنصورة عاصمة السند ، ويقول عنها : ان الخليفة الأموى مقيم بها(١٢) ، فهل كانت هذه المدينة قديما تسمى الاسكندرية أيضا ، ليصبح أمامنا احتمال

---

(١٠) راجع مثلا فى المقامة الأربعين - العلمية - قول البديع :

اسكندرية دارى لو قر فيها قرارى

(١١) ٢٣٥/١ معجم البلدان ·

(١٢) هذا النص منقول عن معجم البلدان راجع ٤٠٩/٥ معجم البلدان·

جديد آخر ، ويذكر باحث عراقى أن الاسكندرية بين بغداد والحلة(١٣) . ولكن ما صلتها اذن بالثغور الأموية ؟ .

ويذهب عبد الوهاب عزام الى أن صحة الكلمة « الآموية » نسبة الى نهر آموى(١٤) - جيحون - وبذلك تكون الاسكندرية المقصودة هى مدينة الاسكندية على نهر آموى .

ومع ذلك كله فلا نزال نسير فى بيداء سحيقة .

فمن هو أبو الفتح الاسكندرى اذا ؟

١ - هناك رأى سائد انه شخصية أسطورية خيالية محضة ، كشخصية راوى المقامات عيسى بن هشام ، يقول الحريرى فى مقدمة مقاماته : كلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف . وهذا ما رجحته منذ عشرين عاما فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر السيأسى الثانى »(١٥) . وؤكد ذلك المستشرق الفرنسى ايوار ، فيقول : وضع البديع شخصا خياليا ابتكره وسماه أبا الفتح ، وذهب بعض الباحثين الى أن عيسى بن هشام راوية المقامات كان شيخا للبديع ، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٠٩ هـ) مؤلف تاريخ همذان ، وينقل ذلك عنه ياقوت فى معجم الأدباء ، ولعل ذلك وهم ناشىء من قول البديع فى مطلع كل مقامة من مقاماته : حدثنا عيسى بن هشام . ولو ذهبنا الى أن أبا الفتح هو الذى كان أستاذا للبديع لكان ذلك أكثر صلة بالبحث ، وأكبر انطباقا على الموضوع .

وممن ذهب الى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب « بديع

---

(١٣) يعد رسالة ماجستير عن مقامات الحريرى ، واسمة طارق العوسج وهو مدرس بمكة المكرمة منذ سنوات .

(١٤) ٢٣٤ بديع الزمان للشكعة نقلا عن محاضرات عزام فى كلية الآداب عام ١٩٤٤ م .

(١٥) ص ١٤٧ الكتاب المذكور .

الزمان » الدكتور الشكعة الذى يقول : حاولنا أن نجد لبطلى المقامات صدى تاريخيا فلم نعثر لهما على أثر والغالب أنهما من ابتكار خيال البديع نفسه(١٦) ٠

٢ - وهناك رأى جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجدوا بالفعل ، ويذهب الى ذلك بعض المستشرقين ، الا انهم لم يستطيعوا تحديد هؤلاء الأشخاص المجهولين ، ولا الكشف عن شخصياتهم التاريخية ٠

وانا معهم فى ذلك ٠ ولكنى أخطو خطوة جديدة من أجل الكشف عن شخصية أبى الفتح بطل المقامات البديعية ٠

ويذهب باحث عراقى(١٧) سبق الاشارة اليه الى ان أبا الفتح هو البديع نفسه ، ومن قبل قلت ذلك فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى »(١٨) حيث ذكرت أنه قد يكون فى حياة أبى الفتح شىء من صفات البديع نفسه ، وشىء من أخلاقه ، ولكنى أخالف ذلك اليوم ، وستبدو الحقيقة واضحة وكاملة بعد قليل ٠

ويذهب باحث آخر(١٩) الى أن الكدية أو الساسانية التى كانت صناعة أبى الفتح « نجد من أعلامها فى عصر البديع من يشبه أبا الفتح من وجوه كثيرة : كابن الحجاج (ت ٣٩١ هـ) ، وابن سكرة (ت ٣٨٥ هـ) وأبى الورد ، ومن يشبهه من بعض الوجوه كأبى حيان التوحيدى ، بل البديع نفسه . ومن يشبهه كل الشبه كأبى دلف والأحنف العكبرى » ٠ ومجمل هذا الرأى أن أشباه أبى الفتح الاسكندرى كثيرون فى عصر البديع ، وأن أقربهم شبها به هو أبو دلف والأحنف ٠ وهذا الرأى لا يأتى لنا بجديد ولا بأمر مؤكد فى البحث على أية

---

(١٦) بديع الزمان ص ٢٣٢ ٠

(١٧) هو طارق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة دكتوراه عن مقامات الحريرى ٠

(١٨) ص ١٥٧ و ١٥٨ الكتاب المذكور ٠

(١٩) ص ٢٣٤ « الأدب فى ظل بنى بويه » للزهيرى - طبع مصر ١٩٤٩ ٠

حال ، فلم يجزم هـذا الباحث برأى معين لـه · وهـذا رأى الدكتـور محمد غنيمى هـلال وأضاف اليه أن أبا دلف قـد يكون اقرب الى شخصية أبى الفتـح(٢٠) ·

٣ - ورأيى الذى اذهب اليه اليوم هـو أن أبا الفتـح انما هـو شخصية تاريخية معروفة فى عصر البديع ، وهـو أبو دلف الخزرجى وحـده ·

وهـذا الرأى لا يسبقنى فيه باحث ، وبه ينفتح الباب أمامنا لفهم كثير من حقائق الأدب فى القرن الرابع · ودليلنا عليه هـو ما قالـه الثعالبى فى « يتيمة الدهر »(٢١) قال :

انشدنى بديع الزمان لأبى دلف ، ونسبه فى بعض المقـامات الى أبى الفتـح الاسـكندرى :

ويحـك هـذا الزمان زور فـلا يغـرنك الغـرور(٢٢)

لا تلـتزم حالـة ولكـن در بالليـالى كمـا تدور

ومن هـذا النص نعرف الحقـائق الآتية :

١ - انشـد البديع الثعالبى شـعرا لأبى دلف ·

٢ - وهـذا الشعر نفسه نسبه البديع فى مقاماته الى أبى الفتح ، فتكون النتيجة هى أن أبا الفتح هـو أبو دلف نفسه باقرار البديع ·

٣ - كان البديع راوية لشعر أبى دلف ، ويبدو لى أن البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم ·

---

(٢٠) النماذج الانسانية فى الدراسات الأدبية المقارنة للدكتور غنيمى ·

(٢١) ٣ : ٢٥٤ اليتيمـــة ·

(٢٢) هـذا الشعر فى المقامة القريضية احـدى مقامات البديع ·

واذن يكون امامنا رأى جـديد نجزم به ، هـو أن البديع حين كتب مقاماته اختار أبا دلف أستاذه وصـديقه ومعاصره بطلا للمقامات ، وكنى عنه بأبى الفتـح ، وكان أبو دلف أروع نموذج ساسانى يصلح بطـلا للمقامات ، لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذى صوره البديع فى المقامات فى شخص أبى الفتـح الاسكندرى ، ولأن شهره وتجارب أبى دلف كانت تصلح معينا يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبا الفتـح وذلك ما قـد كان ٠

بل انى أضيف الى ذلك أن البديع الهمـذانى حين سمع قصص أبى دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه فى البلاد ، واستمع الى فكاهات هـذا الشيخ وسمره فى مجالس الملوك والأمراء والوزراء رأى أن هـذه الصورة الفنية تصلح أساسا لفـن جـديد ابتـكره وسماه « المقامة » ، فكان أبو دلف هـو الملهم للبديع الشاب الذكى بابتكار فـن المقامة فى الأدب العربى ، فى القرن الرابع ، وفى عصر أبى دلف ٠

فمـن هـو أبو دلف هـذا اذن ؟

يقـول صاحب كتـاب « النمـاذج الانسانية »(٢٣) :

على أن ثمـة شخصية تاريخية واقعيـة استمد منهـا الهمـذانى نموذجة الأدبى ، وهـو الشاعر أبو دلف وكان معاصرا لبديع الزمان ، وكان البديع يعجب به ويستدعيه الى مجلسه ويحسن اليه ٠٠ وهـذا الرأى أخـذه على ولم ينسبه صاحب الكتـاب لى ، مجـافاة للأمانة العلميـة ٠

---

(٢٣) القيت بحثا عن شخصية أبى الفتح وانه هـو أبو دلف عـام ١٩٧٠ فى محاضرة عامة عام ١٩٧١ ، ونشر فى الرياض فى كتاب بعنوان « أبو دلف » عام ١٩٧١ ، وبعـد ذلك صـدر كتـاب « النماذج الانسانية » بسنوات ممـا يدل على سـبقى بالرأى ٠

ومع ما فى هذه الجملة من ذهاب الى ما قلناه من أن أبا دلف هو أبو الفتح الاسكندرى بطل مقامات البديع فان فيها على قصرها أخطاء كثيرة :

١ - قوله « وكان أبو دلف معاصرا لبديع الزمان » ، الأولى أن يقال : وكان البديع معاصرا لأبى دلف لأن أبا دلف كان قد بلغ الستين فى حين كان البديع ابن عامين ٠

٢ - قوله : وكان - أى بديع الزمان - يستدعيه - أى أبا دلف - الى مجلسه ، أليس الأولى العكس ؟ أيستقيم أن يذهب شيخ عظيم كبير السن كأبى دلف الى شاب صغير ٠

٣ - قوله « وكان - أى البديع - يحسن اليه - أى الى أبى دلف - أيستقيم ذلك مع مكانة أبى دلف عند عضد الدولة والصاحب عباد وعظماء الدولة بينما كان البديع شابا يسعى للوصول الى مراكز النفوذ فى الدولة ؟

الفصل الثانى

الصاحب وأبو دلف

بين الصاحب وأبى دلف(١)

الصاحب ذو القعدة ٣٢٦ هـ : ٩٣٨ م - ٢٤ من صفر ٣٨٥ هـ : ٣١ مارس ٩٩٥ م .

- ١ -

لم يبلغ احد من الأدباء وحملة رسالة القلم ما بلغه الصاحب ابن عباد ، من المجد والنفوذ وذيوع الصيت ، وكان - كما يقول ابن خلكان - : « نادرة الدهر ، واعجوبة العصر ، فى فضائله ومكارمه وكرمه »(٢) ، وكما يقول فيه الثعالبى : هو صدر الشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان »(٣) .

وقد كرم الصاحب فى حياته ووفاته تكريما لم يبلغه احد من الأدباء وخلد على صفحات التاريخ ، مجدا سامقا ، وأدبا رفيعا وذكرى مرددة على الأيام .

- ٢ -

ولد الصاحب اسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد فى ذى القعدة من سنة ٣٢٦ هـ : ٩٣٨ م فى طالقان ، وهو اقليم من أقاليم ايران ، بين قزوين وأبهر ، من أسرة فارسية(٤) رفيعة النفوذ والسلطان، فى خلافة الراضى العباسى (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) ، فرعاه أبواه بحنانهما وعطفهما رعاية فائقة .

ومضت أيام طفولته الأولى ، والخلافة العباسية تعصف بها العواصف ، فمات الراضى وخلفه المتقى (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ) ثم المستكفى

---

(١) ٧٥ من كتابى الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى (خفاجى) .
(٢) ١ : ٧٥ وفيات الأعيان .
(٣) ٣ : ١٩٢ يتيمة الدهر للثعالبى تحقيق محى الدين عبد الحميد .
(٤) ٦ : ١٩٩ كتاب معجم الأدباء لياقوت - نشر رفاعى .

(٣٢٣ - ٣٣٤ هـ) ، وفى عهده زاد خطر الدولة البويهية فى فارس ، وزحف معز الدولة البويهى على بغداد ، بجيوش كثيفـة ، واستولى عليها عام ٣٣٤ هـ : ٩٤٦ م ، وخلع الخليفة ، وولى مكان المطيع لله العباسى (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) ، وسلب الخليفة سـلطانه ، وتولى حكم العراق بالنيابة عنه ، ولم يبـق للخليفـة ذكر الا أن يردد اسمه فى الخطب ، وتجبى باسمه الأموال للبويهيين ، عماد الدولة أخـو معز الدولة حكم فارس والأهـواز ، كما تولى أخـوهما الثالث ركن الدولة الحكم فى الجبل والرى ، وامتد نفوذه على جرجان وطبرستان ..

أما اقليم خراسان وما وراء النهر فكان فى نفـوذ السامانيين الذين اتخـذوا بخارى عاصمة لهم ، وكانوا يتمتعون باستقلال تام ، وان خطبوا للخليفة العباسى على المنابر ... وكان اقليم الجزيرة والشـام فى أيدى الحمـدانيين ، ومصر فى نيل الأخشيديين ، والشمال الأفريقى تحت سيطرة الفاطميين والأندلس فى حكم الأمويين وملكهم عبد الرحمن الناصر (٣١٠ - ٣٥٠ هـ) .

وكان قيام الدولة البويهية محاولة من العناصر الفارسية لاسترداد نفـوذهم وسلطانهم فى دولة الخلافة من أيدى الأتراك ، وقضـاء على النفوذ التركى فى العالم الاسلامى . وبقيام هـذه الدولة خضعت الخلافة العباسية لسلطانهم وهيمنتهم على العـالم الاسلامى باسم الخـلافة والخلفـاء(٥) .

ولما مات معز الدولة عام ٣٥٦ هـ(٦) خلفـه فى حكم العراق ابنه عز الدولة البويهى (٣٥٦ - ٣٦٧ هـ) ، ثم عضـد الدولة بن ركن الدولة (٣٦٧ - ٣٧٢ هـ) باخـوته : صمصام الدولة بن ركن الدولة (٣٧٢ - ٣٧٦ هـ) ، فشرف الدولـة (٣٧٦ - ٣٧٩ هـ ، فبهـاء الدولـة البويهى (٣٢٩ - ٤٩٣ هـ) .

---

(٥) ٢٤٩ و ٢٥٠ الآداب السلطانية للفخرى .

(٦) فى هـذا العام نفسه مات : سيف الدولة الحمـدانى ، وكافـور الأخشيدى ، وأبو الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الاغانى ، وأبو على القـالى صـاحب كتـاب الأمـالى .

وفى عهد عز الدولة خلع الخليفة المطيع لله ، وولى مكانه الطـائع العباسى (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ) الذى خلعـه بهاء الدولة البويهى أيضا ، حيث جره أحـد قواده من سرير الخلافة ، والخليفة يقول : ـ انا لله وانا اليه راجعـون » • وفى ذلك يقول : الشريف الرضى :

من بعد ما كان رب الملك مبتسما الى أدنـوه فى النجوى ويدنينى

أمسيت ارحم من اصبحت اغبطه لقـد تقارب بين العـز والهـون

ومنظـر كان بالسراء يضـحكنى يا قرب ما عاد بالضراء يبكينى

هيهات اغتر بالسلطان ثانية وقد ضل ولاج أبواب السلاطين(٧)

واختـار بهاء الدولة القادر بالله العباسى خليفة مكان المطيـع (٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ) •

وقـد نشر النفوذ البويهى سلطان الشيعة والعلويين والاعتزال •• وكان للصاحب ابن عباد مجالس ينظـر فيها خصـوم المعتزلة ويدعم حججـهم(٨) •

وفى العهد البويهى نهض الأدب ، كثرت عواصمه ، ونبـغ كبـار الأدباء والشعراء ، كابن العميد (٣٦٠ هـ) ، والصـاحب (٣٨٥ هـ) ، والخوارزمى (٣٨٣ هـ) ، والبديع الهمـذانى (٣٩٨ هـ) ، والصـابى (٣٨٤ هـ) ، والقاضى الجرجانى (٣٩٢ هـ) صاحب الوساطة ، والآمدى (٣٦١ هـ) صاحب الموازنة ، وأبى هـلال العسكرى (٣٩٥ هـ) صاحب الصناعتين ، ومثل المتنبى (٣٥٤ هـ) ، والشريف الرضى (٤٠٦ هـ) ، ومهيار (٤٢٨ هـ) ، والمعرى الحلبى (٤٤٩ هـ) ، وسواهم من أعـلام الأدب والنقـد والبيان والشعر •

---

(٧) ديوان الشريف الرضى ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد •
(٨) ٦ : ٢٠٩ ـ ٢١٢ و ٢٨٠ معجم الأدباء •

وقد تنافس الملوك والأراء والوزراء والولاة فى تشجيع الأدب ورعاية الشعراء ، ولابن العميد والصاحب والمهلبى اثر كبير فى ذلك ، وكان ابن سعدان وزير صمصام الدولة يشجع الفلاسفة والمفكرين كأبى حيان وأستاذه ابى سليمان المنطقى ، وكان شابور بن أردشير وزير بهاء الدولة يحتفى بالثقافة والأدب ، وكان ابن العميد يميل الى العلم من حيث كان الصاحب والمهلبى يميلان الى الأدب ، وابن العميد اعقل ويدعى الكرم ، والصاحب اكرم ويدعى العقل كما يذكر أبو حيان(٩) .

وكانت هذه الثورة السياسية وما صحبها من تيارات مذهبية وعقلية وادبية هى البيئة العامة التى عاش فيها الصاحب وتأثر بها ، وأثر فيها .

- ٣ -

وكان عباد والد الصاحب عالما اديبا كتب لركن الدولة البويهى ، الذى شمل نفوذه الجبل والرى وجرجان وطبرستان ، وكانت حاضرة ملكه هى الرى ، وتولى عباد الوزارة له ، والف كتابا فى احكام القرآن ، نصر فيه الاعتزال وجود فيه(١٠) .

وكان هو الأستاذ الأول لابنه اسماعيل ، الذى لقب فيما بعد بالصاحب . وقد عاش هذا الأب العظيم عمرا طويلا ، ومات فى السنة التى مات فيها ابنه ، وهى عام ٣٨٥ هـ . ويذكر ابن خلكان وغيره انه توفى عام ٣٣٤ هـ او ٣٣٥ هـ(١١) ، والظاهر أن ذلك تحريف .

وهكذا نشأ الصاحب فى الرى فى بيت سيادة ومجد ، حتى قال

---

(٩) ٦ : ٢٢٧ معجم الأدباء .

(١٠) ٦ : ١٧٢ معجم الأدباء نقلا عن كتاب « المنتظم فى التاريخ » لابن الجوزى .

(١١) ١ : ٧٥ و ٧٦ وفيات الأعيان ، وسلم الوصول ورقة ١٦٦ (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

أبو بكر الخوارزمى فيه : « الصاحب نشأ من الوزارة فى حجرها ، ودب ودرج من وكرها ، وورثها من أبيـه »(١٢) ٠

وعاشت أم الصاحب عمرا طويلا كذلك ، حتى توفيت عام ٣٨٤ هـ(١٣) ٠

— ٤ —

تتلمذ الصاحب على صديق أبيه الحميم ، أبى الفضل بن العميد ، وزير ركن الدولة ، وشيخ الأدباء والكتاب فى عصره ٠ و « عماد ملك آل بويه وصدر وزرائهم ، وأوحد العصر فى الكتابة » ، والكثير من الأدباء جلسوا منه مجلس الطلاب من الأستاذ ، فأعجبوا به ، وجاوروه وقلدوه ، واتسموا بطابعه ، وجروا فى نهجه ، وقبسوا من ناره ، واغترفوا من بحره ، وساوروا فى طريقه ترسما وترسن(١٤) ٠ وطالت صحبة ابن عباد الأستاذه ، فسمى صاحب ابن العميد ، وأطلق عليه هذا اللقب ٠ وقد مدح الصاحب أستاذه بقصائد شعرية كثيرة(١٥) ، وكانت مجالس ابن العميد يحضرها العلماء والأدباء والمتكلمون للمناظرة(١٦) ، وكان الصاحب يعده أستاذا ووالدا وابن العميد ينزله من نفسه منزلة الابن والتلميذ(١٧) ٠

ومن أساتذة الصاحب كذلك ابن فارس ، وكان ابن فارس يبعث للصاحب بكتبه والصاحب يصله ويقدره(١٨) ٠

وكذلك تتلمذ على أبى سعيد السيرافى(١٩) ، وشاهد هذا

---

(١٢) ٣ : ١٩٤ يتيمة الدهر ٠
(١٣) ٦ : ٢٣٨ معجم الأدباء ٠
(١٤) ٣ : ١٥٨ يتيمة الدهر ٠
(١٥) ٣ : ١٢٩ المرجع ٠
(١٦) ٣ : ١٦١ — ١٦٣ المرجع ٠
(١٧) ٣ : ١٩٧ المرجع ٠
(١٨) ٦ : ٢٢١ معجم الأدباء ٠
(١٩) ٣ : ٢٠٤ اليتيمة ٠

الأستاذ الكبير من نبـوغة ما حببه اليه ، وعلى أبى بكر بن مقسم تلميـذ ثعلب(٢٠) ، وعلى القاضى أبى بكر بن كامل من كبار رواة المبرد وثعلب والبحترى وأبى العيناء(٢١) • وكان يتردد على مجالس المتكلمين وأهـل النظر بالعراق ، من مثل أبى زكريا يحيى بن عـدى وغيره(٢٢) •

وشهر الصاحب بالعلوم ، واخذ من كل من منها بالنصيب الموفور ، والحظ الزائد الظاهر ، ووهب من الفصاحة وحسن السياسة والأدب الرفيع ما وهب(٢٣) •

وكان كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قـد أخـذ من كل فن بطرف ، وحصل من كل أدب محصولا كثيرا ، وقرأ كتب المعتزلة ووعاها ، فغلب عليه كلامهم ، وكتابته سـائرة على منهجهم وطريقهم ، وكان شـديد التعصب على أهـل الفلســفة وعلومهـا والناظرين فى كتبهـا(٢١) •

وثقافته فى العروض والقوافى واسعة ، وألف فيهما ، وكان يتشيع بمذهب أبى حنيفة وفقـه الزيدية(٢٥) • ويكتب الرسـائل البليغة ويقول الجيدة ، وحصـل الحـديث وتفوق فيـه(٢٦) ، وكانت لديه مكتبـة ضخمة(٢٧) ، وطارت شهرته ، وذاع صيته أديبا وكاتبا مجودا •

ـ ٥ ـ

وقـرب ابن العميـد تلميـذه من الأمير مؤيد الدولة بن ركن الدولة

---

(٢٠) ٦ : ٢٧٦ ـ ٢٧٩ معجم الأدباء •
(٢١) ٦ : ٢٧٩ المرجـع •
(٢٢) ٢٧٩ : ٢٨٠ المرجـع •
(٢٣) راجـع ٦ : ١٧١ المرجـع •
(٢٤) ٦ : ١٧٤ و ١٧٥ المرجـع •
(٢٥) ٦ : ١٧٥ المرجـع •
(٢٦) ٦ : ٢٥١ المرجـع •
(٢٧) ٦ : ٢٥٩ معجم الأدباء •

البويهى ، وكان ينوب عن والده فى أعمال الدولة وسياستها • ويصف له ابن العميد ذكاء الصاحب ومواهبه ، فاتخذه كاتبا له(٢٨) ، واجتهد الصاحب فى الاخلاص لـه ، وانس منه الأمير كفاية ومواهب جمة ، فقربه اليه ، ولقبه بالصاحب كافى الكفاة ، فلما مات ركن الدولة عام ٣٦٦ هـ ، وتولى ابنه مؤيد الدولة أمور الملك بالرى واصبهان وانحاء المملكة أبقى أبا الفتح بن أبى الفضل ابن العميد فى وزارته ، كما كان فى عهد أبيه • ولما أقصى هذا الوزير اتخذ مكانه الصاحب وزيرا • ومات مؤيد الدولة ، فسعى الصاحب ، حتى جاء باخيه فخر الدولة البويهى (٣٤١ — ٣٨٧ هـ) مكانه وذلك عام ٣٦٧ هـ ، فاقر الصاحب فى الوزارة ، ولكن ابن عباد رأى بنظره وثاقب رأيه وحنكته السياسية ، أن يطلب من فخر الدولة اعفاءه من منصبه ليختار مكانه من يريد لخدمته، فأبى فخر الدولة أن يعفيه من عمله وقال لـه : لك فى هذه الدولة من ارث الوزارة ما لنا فيها من ارث الامارة فسبيل كل منا أن يحتفظ بحقه(٢٩) • ظل الصاحب وزيرا لفخر الدولة ثمانية عشر عاما •

— ٦ —

نشر ابن عباد بنفوذه وسلطانه مذهب المعتزلة فدخل الناس فيه ، ومالوا اليه ، رغبة فى مرضاته(٣٠) • وكانت أيامه توطيدا لنفوذ العلويين(٣١) • وكان متعصبا للشيعة ، ناقما على معاوية يذكر ذلك فى شعره(٣٢) ، وذهب الى القول بالاختيار وتسفيه الجبرية والجبريين(٣٣) •

واخلص لدولة البويهيين كل الاخلاص ، حتى لقد حاول السامانيون ان يصير الصاحب اليهم ، فابى وفاءه لها ، وقال : كيف يحسن لى أن

---

(٣٨) راجع ٦ : ٢٢١ — ٢٢٤ المرجع السابق •
(٢٩) ٣ : ١٩٤ اليتيمة ، ٦ : ١٧٤ معجم الأدباء •
(٣٠) ٦ : ٢٥٥ معجم الأدباء •
(٣١) ٣ : ١٩٢ اليتيمة •
(٣٢) ٣ : ٢٧٧ المرجع نفسه •
(٣٣) راجع شعرا لـه فى ذلك فى المرجع نفسه (٣ : ٢٧٦) •

افارق قوما بهم ارتفع قدرى ، وشاع بين الأنام ذكرى(٣٤) . وكان فخر الدولة يثق به ، ويجله واذا رأى رايا ورأى الصاحب غيره ، امتثل لرأى الصاحب وترك رأيه(٣٥) ، وكان فخر الدولة كذلك يحله محل الوالد اكراما واعظاما ، ويخاطبه بالصاحب فى حديثه ورسائله ، وقد التزم رجال الدولة وقوادها مع الصاحب الادب والطاعة حتى كانوا يرتعدون عند رؤية احد من حجابه وحاشيته(٣٦) . وكان الصاحب يلتزم بالعدل مع الشعب(٣٧) .

ولما توفيت ام الصاحب عام ٣٨٤ هـ باصبهان وورد عليه الخبر ، جلس للعزاء ، وركب اليه سلطانه وولى نعمته ، فخر الدولة ، معزيا ، ونزل وجلس عنده طويلا يعزيه ويسكن من لوعته وفعل ذلك سائر الأمراء وكبار القواد(٣٨) .

وبعد ذلك بقليل زوج سبطه عباد بن على بن الحسين الحسنى الهمذانى عام ٣٨٤ هـ بكريمة احد أقرباء فخر الدولة(٣٩) فبعث اليه هذا الملك بأموال ضخمة حملها احد أصحابه الكبار ، وقدم القواد ورجالات الدولة عليه مهنئين واقفين بين يديه مبجلين معظمين(٤٠) ، ومدحه الشعراء بهذه المناسبة .

وفى يوم من الايام استجار خال فخر الدولة بالصاحب ليحميه من غضبة الملك عليه ، فلم يقبل أن يجيره الا بعد أن يستعطف الملك ويترضاه(٤١) . وكان اقارب فخر الدولة من الأمراء وكذلك كبار قواده يحضرون الى قصر الصاحب فيقفون امامه مطرقين الى ان يؤذن لهم .

---

(٣٤) ٦ : ٢٥٩ معجم الادباء ، وراجع ٣ : ١٩٧ اليتيمة .
(٣٥) ٦ : ١٧٤ معجم الادباء .
(٣٦) ٦ : ٢٤٧ المرجع .
(٣٧) ٦ : ٢٤٨ المرجع .
(٣٨) ٦ : ٢٣٨ و ٢٣٩ المرجع
(٣٩) ٣ : ٢٤٢ اليتيمة .
(٤٠) ٦ : ٢٤٠ معجم الادباء .
(٤١) ٦ : ٢٤١ - ٢٤٢ المرجع .

فى الدخـــول فيكون ذلك شرفا للواحـد منهم ، فاذا دخــل الى مجلس الصاحب قبـل الارض بين يديه ، ولا ينصرف الا بعـد أن يقبـل الأرض كذلك مرارا ، ولم يكن الصاحب يقوم لأحد ، ولا يهم بالقيام ، ولا يطمع منه أحـد فى ذلك(٤٢) ٠ وكان رؤســاء البويهيين وأمراؤهم عندما يسير الصاحب يعـدون بين يديه وكان عضد الدولة فى رسائله اليه يجـلـه ويعظمـــه(٤٣) ٠

وقـد كان الصاحب موفقا فى سياسته كل التوفيق ، فتـح خمسين حصنا ، وأضافها الى ملك فخر الدولة(٤٤) ٠ وبلغ غاية لم يبلغها أحـد من أقرانه ، وكان يقول : ما تقى من أوطـــارى وأغراضى الا أن أملك العراق ، وأتصـدر ببغـداد وأستكتب الصـابى ، ويكتب غنى ، وأغير عليـــه(٤٥)

وفى شـــباب الصاحب كان انصرافه الى مجالس العــلم وأندية الأدب ، أما فى أخريات حياته فكانت السياسة تصده عن ذلك ، وتدبير الملك يقتضيه السهر فى حياطته ورعايته ، وقـد نجح فى ذلك أيمـا نجاح ففتح الفتـــوح ، وذلل الصروح ووطىء الرقاب ، وأدرك الثأر ، واصطنع الرجال ، كما يقول الصاحب نفسه من رسالة لـه الى سـديته فى الأدب ابى العلاء الأسـدى(٤٧) ، وفى هـذه الرسالة يؤكد أن أعباء ، السياسية قـد أثرت على صحته ، ومتاعب الحكم قـد أوهت من قـوته ، وفيها يذكر بيتين من شـعره لهمـا دلالتهما وهما :

وقائلة : لم عـرتك الهمـوم وأمـرك ممتثل فى الأمـم

فقلت : دعينى وما قـد عرا فـان الهمـوم بقـدر الهمـم

---

(٤٢) ٦ : ٢٤٥ و ٢٤٦ المرجـــع ٠
(٤٣) ٦ : ٢٨٠ المرجـــع ٠
(٤٤) ٦ : ٢٥١ المرجـــع ٠
(٤٥) ٦ : ٣٠٦ المرجـــع ٠
(٤٦) راجع هـذه الرسالة الخطيرة فى ٦ : ٢٩٥ - ٢٩٩ المرجـــع ٠
(٤٧) ٦ : ٢٨٤ و ٢٨٥ المرجـــع ٠

وقد صرح بأنه كتب هذه الرسالة وسنه تزيد على الخمسين ، وأرجح أنه كتبها نحو عام ٣٨٠ هـ ٠

لم ينجب الصاحب غير بنت واحدة زوجها لعلى بن الحسين الهمذانى الحسنى وكان كاتبا وشاعرا بليغا ، وقد انجبت ابنته ولدا سماه جده (عبادا) واحتفى بمولده أيما احتفاء وقال فيه :

أحمد الله لبشرى أقبلت عند العشى

ان حبانى الله سبطا هو سبط للنبى

مرحبا ثمت أهلا بغلام هاشمى

نبوى علوى حسنى صاحبى(٤٧)

وقد هنأه الشعراء بمولده بقصائد كثيرة(٤٨) ، وبعد أن كبر هذا الطفل وبلغ مبلغ الشباب زوجه جده من كريمة أحد اقرباء فخر الدولة(٤٩) ، وهى ابنة أبى الفضل الداعى ، وهنأ الشعراء الصاحب كذلك بهذه المناسبة الجميلة ٠

وحين بنى الصاحب قصرا له بأصبهان ، اقبل الشعراء عليه يهنئونه بقصائد من جيد الشعر وأعذبه(٥٠) ٠

وذلك كله يدل على مجده ونفوذه الكبير فى الدولة ٠

ـ ٧ ـ

وقد رعى الصاحب النهضة العلمية والأدبية فى بلاده رعاية

---

(٤٨) راجع ٦ : ٢٨٦ المرجع ، ٢ : ٢٤٠ ـ ٢٤٢ اليتيمة ٠

(٤٩) ٣ : ٢٤٢ اليتيمة ٠

(٥٠) ٣ : ٢٠٧ ـ ٢١٨ المرجع ٠

فائقة ، وأغدق على العلماء والأدباء والشعراء ، فكان يرسل الأموال الجمة اليهم والى الكثير من المحتاجين من أهل الشرف والفقهاء والزهاد والكتاب ببغداد والحرمين ، كل سنة ، مع ركب الحج ، على مقاديرهم ومنازلهم ، ويقول الثعالبى فيه : كانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، جلب اليه من الآفاق ، وأقاصى البلاد ، كل خطاب جزل ، وقول فصل ، واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون غنهم فى الأخذ برقاب القوافى ، وملك رق المعانى ، فانه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء . وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والرى وجرجان مثل : أبى الحسين السيمى ، وأبى بكر الخوارزمى ، وابى طالب المامونى ، وابى الحسن البديهى ، وأبى سعيد الرستمى وأبى القاسم الزعفرانى ، وأبى العباس الضبى ، والقاضى الجرجانى ، وأبى القاسم بن أبى العلاء وأبى محمد الخازن ، وأبى هاشم العلوى ، وأبى الحسن الجوهرى ، وبنى المنجم ، وابن بابك ، وابن القاشانى والبديع الهمذانى ، واسماعيل الشاشى ، وأبى العلاء الأسدى ، وأبى الحسن الغويرى وأبى دلف الخزرجى ، وأبى حفص الشهرزورى وأبى معمر الاسماعليى ، وأبى الفياض الطبرى ، وغيرهم . ومدحه مكاتبة : الرضى والصابى وابن حجاج وابن سكرة وابن نباتة .

مدح الصاحب خمسمائة شاعر من أرباب الدواوين ، وكان من قضائه قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد(٥١) . وقال الصاحب : مدحت بمائة الف قصيدة شعر عربية وفارسية وقد انفقت أموالى على الشعراء والأدباء والزوار والقصاد ، وما سررت بشعر ، ولا سرنى شاعر ، كما سرنى الرستمى بقوله :

---

(٥١) ٦ : ٢٥٧ معجم الأدباء .

ورث الوزارة كابرا عن كابر مرفوعة الاسناد بالاسناد

يروى عن العباس عباد وزا رته واسماعيل عن غباد(٥٢)

ولا شك أن الصاحب اثر بذلك فى النهضة الأدبية فى بلاده تأثيرا كبيرا وخطيرا ٠

- ٨ -

كان الصاحب - كما قيل فيه - يجمع بين الرأفة والبطش ، والناس يهابونه ويجلونه لاقتداره وطبشه ٠ وكان وقورا محبوبا من العامة والخاصة ، والى جانب ذلك كان جوادا سخيا ، لا تخلو داره فى كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس يجلسون على مائدته فى الافطار ، وكانت صلاته وخيراته فى هذا الشهر تبلغ ما ينفق منها فى جميع شهور السنة(٥٣) ، ولا يقل ما يبذله كل عام فى صلات الأشراف وأهل العلم ووجوه الخير عن مائة الف دينار(٥٤) ٠٠ وكانت له من أسباب الهيبة ما يعجز الكاتب عن وصفه(٥٥) ٠ وفيه وفى ابن العميد يقول خصمهما اللدود أبو حيان التوحيدي : كانا كبيرى زمانهما ، واليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدانت الدنيا(٥٦) ٠

ومع ذلك فقد هجاهما التوحيدى فى كتابه « مثالب الوزيرين » هجاء مرا ، والصق بهما التهم جزافا ، وكال لهما الهفوات بغير حساب ٠ وهجا بعض الشعراء الصاحب هجاء مقذعا(٥٧) ، كأبى العلاء الأسدى ،

---

(٥٢) ٦ : ٢٦٣ المرجع ٠
(٥٣) ٣ : ١٩٧ اليتيمة ٠
(٥٤) ٦ : ٢٤٩ معجم الأدباء ٠
(٥٥) ٦ : ٢٤٨ المرجع ٠
(٥٦) ٦ : ٢٣٢ المرجع ٠
(٥٧) ٣ : ٢٨١ اليتيمة ٠

والنويرى ، والخوارزمى والسلامى(٥٨) ٠

- ٩ -

وترك الصاحب مؤلفات كثيرة منها :

١ - كتاب المحيط باللغة فى عشرة مجلدات ، ومنه نسخة خطية عثر عليها فى لندن فى المتحف البريطانى ، ونسخة فى مكتبة المجمع العلمى العراقى ببغداد تقع فى مجلدين كبيرين ، وكاتبها هو الشيخ محمد السماوى عن نسخة كتبت للسيد على خان المدنى صاحب السلافة ٠

٢ - كتاب الكافى فى الرسائل ٠

٣ - ديوان رسائل الصاحب - عشرة مجلدات ، وقد طبعت مختارات منها ٠

٤ - كتاب الزيدية ٠

٥ - كتاب الأعياد وفضائل النوروز ٠

٦ - كتاب فى تفضيل على بن أبى طالب ٠

٧ - كتاب الوزراء ٠

٨ - عنوان المعارف فى التاريخ ٠

٩ - الكشف عن مساوىء المتنبى فى شعره وهو مطبوع ، وقد نقد الصاحب فيه شعر المتنبى ، وكان يتحامل على المتنبى لأنه لم يقصد اليه فى الرى ولم يمدحه مع أنه مدح ابن العميد ، وكان الصاحب قبل وفاة المتنبى عام ٣٥٤ هـ لا يزال شابا ولم يكن له آنذاك كبير الخطر ، ولا شهرة فى السياسة ، ولعل ذلك هو ما جعل المتنبى لا يقصده ولا يقول فيه شيئا من الشعر ٠

---

(٥٨) يتيمة الدهر للثعالبى - ج ٣ ٠

١٠ ـ كتاب مختصر أسماء الله تعالى وصفاته ٠

١١ ـ كتاب العروض الكافى ٠

١٢ ـ كتاب نقض العروض ٠

١٣ ـ كتاب جوهرة الجمهرة ٠

١٤ ـ كتاب نهج السبيل فى الأصول ٠

١٥ ـ أخبار أبى العيناء ٠

١٦ ـ تاريخ الملك واختلاف الدول ٠

١٧ ـ وهذا كله بالاضافة الى ديوان شعره ، وهو مطبوع ، وقد صدرت طبعة جديدة منه من مكتبة النهضة ببغداد بتحقيق محمد حسن آل ياسين ٠

١٨ ـ وينسب ياقوت اليه كتابا عنوانه « كتاب الزيدين » ولعله هو كتابه الزيدية فحرف ٠

ـ ١٠ ـ

ظل الصاحب وزيرا لفخر الدولة أكثر من ثمانية عشر عاما ومات وهو يخطو الى الستين ، فى الرابع والعشرين من صفر عام ٣٨٥ هـ(٥٩) ٣١ من مارس عام ٩٩٥ م ومات بعده فخر الدولة بعامين ٠

وقد اهتزت مدينة الرى وهى تشيع جثمان الوزير الأديب الى مرقده الأخير ، وسار امام النعش فخر الدولة وكبار القواد والأمراء ، وقعد بنفسه للعزاء أياما(٦٠) ٠ وبكاه الشعراء بكاء مؤثرا(٦١) ، فقال فيه : أبو القاسم الأصبهانى :

---

(٥٩) ٣ : ٢٨٣ اليتيمة ٠

(٦٠) ٦ : ١٦٩ و ٢٧٥ معجم الادباء ٠

(٦١) ٣ : ٢٨٤ ـ ٢٩٠ اليتيمة ، ٦ : ٢٦٣ و ٢٩٤ و ٢٩٥ معجم الأدباء ٠

ما مت وحدك لكن مات من ولدت   حواء طرا ، بل الدنيا ، بل الدين

تبكى عليك العطايا والصلات كما   تبكى عليك الرعايا والسلاطين

وقال فيه الشريف الرضى من قصيدة طويلة :

هلا اقالتك الليالى عثرة   يا من اذا عثر الزمان اقالا

ان نكس الاسلام بعدك رأسه   فلقد رزى بك موئلا ومآلا

كان الغريبة فى الزمان فأصبحوا   من بعد غارب نجمه أمثالا

وهكذا طويت هذه الصفحة البيضاء وختم سجل تلك الحياة الحافلة بالمجد والعبقرية ٠

- ١١ -

١ - كانت كل الأسباب تدفع بالصاحب الى النبوغ فى الأدب : عصره،ونشأته العلمية والأدبية،وأساتذته من أمثال : ابن العميد والسيرافى وابن فارس ، وبيته ومناصبه التى تقلدها ، وحلقات العلم والأدب ومناظراتهما التى خاضها ، والكتب التى قرأها ، ورغبته فى أن يحتل منزلة ابن العميد ، وأن تحتل الرى منزلة كبغداد فى قيادة النهضة الأدبية وتوجيهها ٠

كل ذلك كان عاملا فى تفجر مواهبه ، وانطلاق ملكاته ، وانبثاق ينابيع شاعريته ، فكان أديبا كاتبا بليغا ، وشاعرا رصيفا ، وكان أستاذه وقدوته فى الكتابة الفنية هو ابن العميد ولا ريب ٠

٢ - وفى عصر الصاحب ازدهرت الكتابة ، وبلغت قمة التجويد والتجديد ، ونبغ فى هذا العصر أعلام الأدب والنقد والنثر الفنى ، من أمثال : ابن العميد والجرجانى والعسكرى والآمدى والصابى والخوارزمى والبديع والمهلبى والضبى وغيرهم ٠

وكان الصاحب يقول : كتاب الدنيا وبلغاء العصر اربعة : ابن العميد والصابى وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، ولو شئت لذكرت الرابع ، يعنى نفسه(٦٢) . وكان يقال ان الصاحب يكتب ما يريد والصابى يكتب ما يراد . وكان يسير على طريقة ابن العميد فى الكتابة ، مع حرص شديد على السجع ، حتى روى أبو حيان فيه : انه لو رأى سجعة ينحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من اجلها الى غرم ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها(٦٣) ، ويقول أبو حيان : كان ابن عباد يأتى بالسجع فى أثر كلامه ، مع روية طويلة(٦٤) .

وبلاغاته وفقره ورسائله مشهورة ، معروفة المنزلة فى الفصاحة والبيان .

يقول فى التهنئة ببنت :

أهلا وسهلا بعقيلة النساء ، وأم الأبناء ، وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار ، والمبشرة باخوة يتناسقون ، نجباء يتلاحقون ، فادرع يا سيدي اغتباطا ، واستانف نشاطا ، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ، والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ، ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ، والسماء مؤنثة ، وقد زينت بالكواكب ، وحليت بالنجم الثاقب ، والنفس مؤنثة ، وبها قوام الأبدان ، وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا عرف الأنام ، والجنة مؤنثة ، وبها وعد المتقون ، ولها بعث المرسلون . فهنيئا لك ما أوليت ، وأوزعك الله شكر ما أعطيت ، وأطال بقاءك ما عرف الفضل والرمد ، وما فى الأمد ، وما عمر لبد .

واهدى الى الصاحب مصحف فقال :

---

(٦٢) ٢ : ٢٤٦ اليتيمة .

(٦٣) ٦ : ٢٠٧ معجم الأدباء .

كتاب الله وبيانه ، ووحيه وتنزيله ، وهداه وسبيله ، ومعجزة رسول الله - صلى الله عليه وسلم ودليله - ، طبع دون معارضة على الشفاه ، وختم على الخواطر والأفواه ، فقصر عنه الثقلان ، وبقى ما بقى الكون ، لائح سراجه ، واضح منهاجه ، منير دليله ، عميق تأويله . يقصم كل شيطان مريد ، ويذل كل جبار عنيد .

وتتلخص طريقة الصاحب الفنية فى الكتابة فيما يلى :

أولا : ايثار السجع والتزامه ، حتى لبقول أبو حيان التوحيدى متهكما به : كان كلفه بالسجع فى الكلام عند الهزل والجد يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد . قلت لابن المسيبى : اين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك حدا لو انه رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من اجلها الى عزم ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يخليها ، بل يأتى بها ، ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع من وصفت من عواقبها . ثم قال - نقلا عن ابن العميد - : ان الصاحب خرج من الرى متوجها الى أصفهان ، ومنزله « ورامين » . وهى قرية كالمدينة ، فجاوزها الى قرية غامرة ، وماء ملح ، لا لشىء الا ليكتب الينا : كتابى هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار .

ثانيا : ايثار الفقر القصيرة فى التعبير ، لشدة وقعها فى النفس ، وقوة تأثيرها فى السمع .

ثالثا : الاهتمام بالمعنى اهتماما واضحا ، واعطاء الموضوع ما يستحقه من عناصر ، فهو يقسم عناصره ، ويرتبها ، ويعطى كل قسم منها من المعانى ما يوضحه ويبينه ، وهو يأخذ هذه المعانى بالتحليل والتفصيل ، ويتعهدها بالتنويع والتفريع ، ويقرن بعيدها بما يقربه الى العقل من دليل او نظير ، ويولد بعضها من بعض ، متكئا على ثقافته العقلية ، فأصبحت الرسالة عنده ذات وحدة موضوعية ، وبنية فنية متميزة ، وصارت معانيه عنده دقيقة الترتيب والتقسيم .

رابعا : كثرة الحجاج العقلى فى أسلوبه · أثرا لثقافته الكلامية التى استفادها من اعتزاليته ·

خامسا : الحرص على تأكيد المعنى وتقريره ، بمعاودته ، وبايثار الترادف والالحاح عليه ·

ونثر الصاحب على الجملة ـ لو تأملناه ـ نثر لطيف ، رشيق بليغ ، عذب سهل ، يتميز بقوة الحجة والاعتماد على المنطق ، مما كان أثرا لاعتزاليته وثقافته وعقله الواسع · كما يتميز بقصر الفقرات وشدة توقيعها والحرص على السجع فيها ، وقد يعنى فيه بالجناس أو المقابلة ·

ولا شك أن الصاحب كان من أعلام النهضة الفنية فى الأدب والكتابة وأدب الرسائل فى عصره ، وهو القرن الرابع الهجرى ، الحافل بأسباب النهضة والازدهار والتجديد والحضارة ·

٣ ـ وفى عصر الصاحب كان الشعر يجتاز مرحلة عالية من البلاغة والتجديد والابتكار ، وكان المتنبى والرضى ومهيار والمعرى ومئات الشعراء يدوى ذكرهم فى كل أفق ، ويسير شعرهم فى كل مكان ، ويملأون الجو الأدبى حياة وقوة وخصبا ·

وللصاحب شعر كثير ، جمع فى ديوان منشور ، وروى بعضا منه الثعالبى وغيره من الكتاب ·

وقد نظمه الصاحب فى أغراض كثيرة :

(أ) نظمه فى الغزل ، كقوله :

قال لى : ان رقيبى سيىء الخلق فداره

قلت : وجهك الجنة حفت بالمكاره

(ب) وفى الخمريات ، ومنه فى وصف الكأس :

رق الزجاج وراقت الخمر وتشابها فتشاكل الأمر

(جـ) ونظمه فى الأوصاف والتشبيهات ، كقوله :

شبهته والسيف فى كفه بالبدر اذ يلعب بالبرق

وقوله :

أهديت عطرا مثل طيب ثنائه فكانما اهدى له أخلاقه

(د) وفى الاخوانيات كقوله :

يا أبا الفضل لم تاخرت عنا فاسانا بحسن عهدك ظنا

كم تمنت نفسى صديقا صدوقا فاذا أنت ذلك المتمنى

فبغصن الشباب لما تثنى وبعهد الصبا وان فات منا

كن جوابى اذا قرات كتابى لا تقل للرسول كان وكنا

(هـ) وفى المدح كقوله فى فخر الدولة لما بنى قصره بجرجان :

يا بانيا للقصر بل للعلا همك والفرقد سيان

لم تبن هذا القصر بل صغته تاجا على مفرق جرجان

وقصرك المبنى من قبله ملكك والله هو البانى

فابيل نثار العبد بل نظمه فانه والدر مثلان

واسمع مقالا لم يقل مثله مذ كانت الدنيا لانسان

لو كان للخلق الهان لكان فخر الدولة الثانى

وفى البيت ما فيه من المبالغة القريبة من الكفر ومن الملق والنفاق ٠

(و) ونظمه فى الهجاء والمجون كقوله :

ان قاضينا لأعمى أم على عمد تعامى
سرق العيد كأن العيد من مال اليتامى

وقوله :

تزلزلت الأرض زلزالها فقالوا بأجمعهم : ما لها ؟
مشى ذا الثقيل على ظهرها فأخرجت الأرض أثقالها

وهو شعر يدل على ذوق مترف ، وشاعرية خصبة ، غنية بالألوان والصور والأخيلة والمعانى ، ولكنه لا يرتفع به الى منزلة شعراء عصره الخالدين ، من أمثال المتنبى والرضى ومهيار وغيرهم ٠ وهو كذلك لا يصل الى منزلة نثره البليغ الرصين الرائع ٠

وعلى الجملة فقد كان (ابن عباد)(٦٥) شاعرا مجودا ، وبليغا

---

(٦٥) راجع فى الصاحب : المنتظم لابن الجوزى - يتيمة الدهر الجزء الثالث - وفيات الأعيان الجزء الأول - سلم الوصول (مخطوط) - ٠
معجم الأدباء لياقوت - الأعلام للزركلى - جميع كتب التاريخ التى أرخت للدولة البويهية والقرن الرابع الهجرى - كتب تاريخ الأدب العربى ، من مثل تاريخ الأدب العربى للزيات - تاريخ آدب اللغة العربية لزيدان - تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد زيدان ، تاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى ، الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى ، أدبيات اللغة العربية لمحمد عاطف ، تاريخ الأدب لحفنى ناصف ، الحياة الأدبية فى العصر العباسى ، والحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى ، وهما لكاتب هذا البحث - العصر العباسى للاسكندرى ، تاريخ الأدب العربى الجزء =

محلقا ، وأديبا مترسلا ، فى الصف الأول من أدباء عصره ، وقد خلدته روائع شعره ونثره على مر الزمان ٠

= الثانى لمحمود مصطفى ٠ دوائر المعارف من مثل : دائرة المعارف الاسلامية ، دائرة معارف البستانى ، دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى ، الأعلام للزركلى _ زهر الآداب للحصرى ، الصناعتين للعسكرى ، صبح الأعشى القلقشندى ، النثر الفنى فى الرابع لزكى مبارك ، أمراء البيان لمحمد كرد على ، الفن ومذاهبه فى النثر العربى لشوقى ضيف ، المثل السائر لابن الأثير ، نهاية الأرب للنويرى ، الآداب السلطانية للفخرى _ الوزراء والكتاب للجهشيارى ، نشوار المحاضرة للتنوخى ٠

وراجع ديوان الصاحب ، ورسالته : الكشف عن مساوىء المتنبى فى شعره ، وكذلك مجموعة رسائله ٠

وللدكتور بدوى طبانة كتاب عن الصاحب نشر فى سلسلة أعلام العرب ، وللدكتور حامد داود حفنى كتاب عنه كذلك

الفصل الثالث

ابـو دلـف فى زحـام الحيـاة

أبـو دلـف الخـزرجى

(٣٠٠ ـ ٣٩٠ هـ = ٩١٣ ـ ١٠٠١ م)

ـ ١ ـ

رحالة من أعظم الرحالة الجغرافيين المسلمين على امتداد التاريخ وبخاصـــة فى القرن الرابع ·

وعالم وطبيب وكيمائى وجيولوجى من الطراز الأول فى عصره ·

ومنادم فى الذروة ، جلس فى مجالس الملوك ينادمهم ، وينـــادم الوزراء والأمراء ، وينـــال عندهم الحظوة والمكانة الرفيعة ·

وشاعر رفيـــع المنزلة فى عصره فى الشعر ، وعلم من أعـــلام الشعر الساسانى الذى كان لـــه طرافته وروعته فى عصره ·

ونموذج فنى رفيع للساسانية التى تتميز بالظرف وعلو الـذوق وجمـــال الفكاهـــة وحضور البديهـــة وسرعة النكتـــة ·· وعـــلو ذوقـــه وجمـــال فكاهته ممـــا حببه الى الملوك وقربه الى الوزراء

وهو شخصية فذة اهتزت دوائر المشرق والمغرب بدراسة أفكارها ونتائج رحلاتها القـــديمة فى شتى أنحـــاء آسيا ·

ولقـــد كان بديع الزمان الهمـــذانى وثيق الصـــلة بأبى دلـــف ، وواقفا على أخباره ، وراوية لشعره ، وفى اليتيمة ما يدل على ذلك(٢)· وكانت شـــخصية أبى دلـــف ملء سمع البـــديع وبصره ، ورحـــلاته وتطوافه فى الأرض موضع عجبه واستظرافه ، كما كانت شيخوخة أبى دلف وتجاربه وحكمته وخبرته بالحياة وتنقله بين الغنى والفقر ، وحرفته الساسانية وهـــو علم نيها ·· كان ذلك كله موضـــع تأمل البديع وتعجبه ،

---

(١) ١٠٧ من كتابى « الحيـــاة الأدبية فى العصر العباسى الثانى » ·

(٢) ٣ : ٢٢٣ اليتيمـــة ·

لذلك فان البديع حين كتب مقاماته اتخذ من ابى دلف وشخصيته بطلا للمقامات التى ابدعها ، ورمز اليه باسم ابى الفتح الاسكندرى .

ونقول تأكيدا لذلك : ان جميع ما صور به البديع بطل مقاماته أبا الفتح الاسكندرى ينطبق على أبى دلف تمام الانطباق .

فهو خطيب وبليغ وشاعر ، وهو جوالة فى الآفاق ، وهو يحترف الساسانية تظرفا ودعابة وحنو فكاهة ، والعجك من قعود همته مع حسن آلته ، وهو كهل قد غبر فى وجهه الفقر ، وهو كما يقول البديع فى المقامة الصيمرية على لسان أبى الفتح :

« خرجت اسيح كأنى المسيح فجلت خراسان الى كرمانى وسجستان ، وجيلان ، الى طبرستان والى عمان ، الى السند والهند ، والنوبة والنبط ، واليمن ، والحجاز والطائف فجمعت من النوادر والأخبار والأسحار والفوائد .. ما قصر عنه فتيا الشعبى » .

واسم أبى دلف مسعر بن المهلهل .

ونسبته الى الخزرج احدى القبيلتين الكبيرتين فى المدينة اللتين أطلق عليهما بعد الهجرة اسم « الأنصار » ، وهما الخزرج والأوس . والخزرج فى الاسلام وبالاسلام تاريخ كبير خالد ، ومن الخزرج بنو النجار أخوال رسول الله . لأن أم جده عبد المطلب « نجارية » .

أما الينبعى فهو نسبة الى مدينة ينبع المشهورة فى الحجاز ، ويوصف أبو دلف أيضا بالينبوعى ، وينبع وينبوع علم واحد لهذه البلدة المعروفة من بلاد الحجاز .

ونحن لا نعرف عن المهلهل والد مسعر ولا عن قومه شيئا ، فكل المعلومات المتعلقة بحياة ابى دلف شحيحة ونادرة .. وقد عنى المستشرقون باعمال ابى دلف الجغرافية وحدها ، ومن بينهم رود صوبر،

ومينورسكى ، وكراتشوفسكى • ولم يستطيعوا مع ما بذلوه من جهد علمى ، كشف ما غمض دن حياة أبى دلف نفسها •

أما أم أبى دلف فنجد فى رسالة لابن العميد(٣) ، كتبها وعيدا وتهديدا لأبى دلف ، ما يدل على أن صاحبنا يتتمى الى ابتة محمد بن زكريا الذى كان يعاصر لبن للغميد •

وقد أعيانى البحث فى المصادر القديمة عن شخصية محمد ابن زكريا فلم أهتد الى اثر له ، وقد أستطيع فى المستقبل الاهتداء الى ترجمة له تكشف عن شخصيته ، فاضيف الى صورة أبى دلف مزيدا من الوضوح والرؤية •

واغلب الظن أن ابا دلف ولد فى ينبع ، وهو ما ذكره كراتشوفسكى فى كتابه ، « تاريخ الأدب الجغرافى العربى »(٤) أيضا ، ويؤيد ذلك قول ابى دلف فى رسالته التى وصف فيها رحلته الى الصين ، وهى الرسالة الأولى : « لما نبا بى وطنى ، ووصل تى السير الى خراسان ، ضاربا فى الأرض »(٥) • ويذكر خالدوف وبولناكوف فى تحقيقهما للرسالة الثانية لأبى دلف ذلك أيضا ، اى أن ميلاده كان فى ينبع ، ولكنهدا يخطئان فيقولان : ان مكان مولده هو فى مدينة ينبع الميناء على ساحل البحر(٦) ويقولان اثر ذلك : ومن غير المعروف زمن ومكان مولد ووفاة أبى دلف •

وتذكر بعض المراجع ، ومن بينها الأعلام للزركلى ، أن أبا دلف

---

(٣) سأذكر فقرات من هذه الرسالة عند الحديث عن صلة أبى دلف بابن العميد - وراجعها فى صفحة ٢٨٩ من كتاب مثالب الوزيرين لأبى حيان التوحيدى •

(٤) ص ١٨٨ •

(٥) راجع ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت •

(٦) ص ٨ الرسالة الثانية لأبى دلف - ترجمة محمد منير مرسى - نشر مكتبة عالم الكتب بالقاهرة •

مات نحـو عام ٣٩٠ هـ - ١٠٠١ م ، وأنه عاش نحـو التسعين عاما ، فيكون ميلاده اذن فى خلافـة المقتـدر بالله العباسى عام ٣٠٠ - ٩١٣ م ٠

ويذكر الثعالبى فى كتابه « يتيمـة الدهـر » انه عمر تسعين عاما، فيقول عنه : خنق التسعين فى الاطراب والاغتراب ، وركوب الأسـفار الصعاب » ٠ ولكنه لا يحـدد تاريخا لميلاده ولا لوفاته ٠

وهـو من الجزيرة العربية ، من ينبع عاش القرن الرابع الهجرى كله ، يجـوب البلاد ، ويمدح الملوك ، وينادم الأمراء والوزراء ، تراه مطوفا فى كل مكان من بخارى الى الصين والهنـد ، ومن فارس الى أرمينية وأذربيجان وطبرستان ، وبلاد الأكراد ، ويصف كل ما شاهده ، ويدون كل ما يلاحظه ، فى دقـة تامة ، وعناية بالتفاصيل ، ممـا أذهل المستشرقين ، فكتبوا عنه أنه كان جغرافيا من الطراز الأول ، ومن أشهر الرحالة فى القرن الرابع ٠

وأبو دلف من هـذا الجانب مصدر أصيل لكل الجغرافيين المسلمين ، الذين أتوا بعـده ، ومن بينهم : ياقـوت الحمـوى فى كتـابه « معجم البلدان » ، والقزوينى فى كتـابيه : « عجـائب المخلوقات » و « آثار البـلاد » ٠

وأبو دلف شـاعر عربى كبير ، مجهول شأنه ، مغمور تاريخه ، لم يذكره أحـد من المؤلفين القـدماء ، ونسيه المحـدثون نسيانا تاما ٠

والمصـدر العربى القـديم الذى ترجم لأبى دلف شاعرا ترجمـة أدبية ، ليس فيها شىء من التفصيل عن حياته ، هـو كتاب « يتيمـة الدهر » لأبى منصور الثعالبى شـيخ الأدباء فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى (المتـوفى عـام ٤٢٩ هـ) ، فقـد ذكره الثعالبى فى الباب السادس الذى خصـه بالشعراء الطارئين من الآفـاق على الوزير الصاحب بن عبـاد ، وقال عنه :

« أبو دلف الخزرجى الينبوعى ، مسعر بن مهلهل ، شاعر كثير الملح

والظرف ، مشحوذ المدية فى الجدية ، خنق التسعين فى الاطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب فى خدمة العلوم والآداب » ، ويستمر الثعالبى فى الحديث عن أبى دلف ، فيقول : « كان ينتاب - يقصد - حضرة الصاحب بأصبهان ، ويكثر المقام عنده ويتزود كتبه - أى رسائله التى تتضمن التوصية - فى أسفاره » .

ويشير الثعالبى الى معركة الهجاء التى دارت بين أبى دلف والشاعر السلامى (٣٣٦ - ٣٩٤ هـ) .

ويذكر شعرا لأبى دلف ، وقصيدته الساسانية الطويلة(٧) .

وفى موضع آخر من اليتيمة يقول الثعالبى عنه : « وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبى دلف مسعر بن مهلهل الينبعى ، يشعر ويتطبب ويتنجم ويحسد السلامى على منزلته(٨) .

ويشير الثعالبى الى أبى دلف فى بعض كتبه الأخرى اشارات عابرة ، مثل كتابه « لطائف المعارف » .

ونجد نقولا جغرافية كثيرة عنه فى : « عجائب المخلوقات » و « آثار البلاد »(٩) ، وهما للقزوينى ، وفى « معجم البلدان » لياقوت الذى يشير الى أبى دلف فى ٣٤ اقتباسا .. ودراسات كرتشوفسكى تذكر ٢٤ اقتباسا لا يذكر فيها ياقوت اسم أبى دلف .

---

(٧) راجع ٣ : ٢٥٢ وما بعدها يتيمة الدهر . للثعالبى - بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٨) ٢ : ٤٠٠ يتيمة الدهر .

(٩) فى كتاب « آثار البلاد » يوجد ٢٤ اقتباسا من « الرسالة الثانية لأبى دلف » وان كان لا يشير الى أبى دلف الا فى سبع منها ، وفى عجائب المخلوقات توجد كذلك اشارات كثيرة له ، وأربع اقتباسات دون اشارة الى اسمه .

وفى دائرة المعارف الاسلامية فى مادة « مسعر » ترجمة لـه تبين الكثير من دراسات المستشرقين عنـه : رحـالة كبيرا ، وجغرافيـا مشهورا(١٠)

وتجىء اشارات صغيرة عنه فى كتاب « بلاد ينبـع » للشـيخ حمـد الجـاسر(١١) ٠

وفى كتاب الأعـلام للزركلى ترجمة لأبى دلف فى عـدد سطور ممـا جاء فيـه عنه : شـاعر رحـالة ، وكان يكنى بالرحـالة الحجازى قام برحلة ممتعة الى الشرق الأقصى ، وكتب ما شاهده فى تلك الديار فى كتاب ضخم ، نقله المستشرقون عنه الى مختلف اللغات الأوربيـة ، تجاوز التسعين من عمره توفى نحـو عام ٣٩٠ هـ(١٢) ٠

ويلاحظ الشيخ حمـد الجاسر على هـذه الترجمة أمرين :

الأول أن الزركلى نسبه الى ينبع البحر ، وهـو من ينبع النخل ٠

والثانى قوله فى « كتـاب ضخم » : ويقول العلامة الجاسر : انه ليس مجلدا ضخما بل رسالة ، وقـد حققها المستشرق مينورسكى وطبعت فى مصر سنة ١٩٥٥ فى ٣١ صفحة النص العربى والترجمة الانجليزية والدراسة فى ١٣٦ صفحة ٠

وكلام العلامة الجاسر صحيح فى أنه ليس كتابا ضخما بل رسالة، وأما قوله : « ان الرسالة حققها المستشرق مينورسكى اخ » فذلك ليس عن رسالة أبى دلف فى وصف رحلته الى الشرق الأقصى ، وهى التى

---

(١٠) راجـع الطبعة الانجليزية الجـديدة من دائرة المعارف الاسلامية. وقـد ترجم النص الانجليزى لهـذا البحث الأستاذ وديع فلسطين ـ الطبعة العربية لم تصـل الى هـذه المـادة ٠

(١١) ١١٧ و ١٤٥ بـلاد ينبـع ٠

(١٢) ٨ : ١٠٩ الأعـلام للزركلى ٠

تسمى بالرسالة الأولى ، بل عن رسالة أبى دلف فى وصف رحلته فى آسيا الوسطى وهى التى تسمى الرسالة الثانية ٠

والرسالة الأولى لأبى دلف عنى بتحقيقها المستشرق الألمانى رور صوير ٠

أما الرسالة الثانية فعنى بتحقيقها المستشرقون الروس ، فدرسها المستشرق كراتشوفسكى ، ومينورسكى ، وحققها مينورسكى ، ثم خالدوف ويولناكوف معا فى نصها العربى ، وهما مدرسان بجامعة ليننجراد ٠

- ٢ -

وهكذا عاش أبو دلف فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ٠ وشاهد كل أحداث هذا القرن وغرائبه ، بما ساد فيه من حضارة وازدهار للعلوم والآداب ، وبما ساده من تطورات فكرية وسياسية كبيرة، كان فى مقدمتها : انتهاء نفوذ الخلافة العباسية ، باستيلاء البويهيين على بغداد عام ٣٣٤ هـ ، وقيام الدول المستقلة عن الخلافة فى أنحاء العالم الاسلامى الذى كانت من قبل تجمعه رابطة سياسية واحدة ٠

ولا نعلم شيئا عن حياة أبى دلف الأولى ونشأته ٠ وبلا ريب قد تثقف ثقافة واسعة ، وشب عربيا كريما عزيز النفس ذا شخصية قوية مهيبة مرحة ، فى وسامة ولطف ٠ وكانت ينبع النخل آنذاك مركزا من مراكز العلم والأدب والشعر ، وصار أبو دلف شاعرا وعرف كذلك طبيبا ومنجما ، وليست « ساسانيته » بمنقصة لعزة نفسه ، فقد كانت ساسانية ظرف وفكاهة وأدب وطواف بالآفاق ٠

وفجأة ينبو بأبى دلف وطنه ، وتسير به الحياة الى الأمير السامانى نصر بن أحمد (٣٠١ - ٣٣١ هـ : ٩١٤ - ٩٤٣ م) ، فيحتل عنده منزلة عالية فى دولته ، وقد يكون الشعر أو الطب بدء صلته بالأمير ، ومهما كان ، فقد صار أبو دلف شاعر الأمير ونديمه ، وصار كذلك سفيره فى كثير من المهام الرسمية ٠

وكان الجيهانى أبو عبد الله بن أحمد بن نصر وزير للسامانيين (توفى عام ٣٣٠ هـ/٩٤١ م) ، وكان يشجع الأدباء ، ويحتفى بالعلماء ولعله هو الذى احتضن أبا دلف ، أو اتخذه كاتبا له ، وعن طريقه توطدت صلته بالملك السامانى نصر بن أحمد الذى كانت بخارى عاصمة ملكة الواسع الذى امتد نحو الثلاثين عاما (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ) .

وفى عهد الملك نصر بن أحمد وفد الى بخارى وفد هندى برياسة الأمير الهندى كلاتلى فى سفارة هندية الى بلاط الملك السامانى، وانجز هذا الوفد مهمته ، وعند عودتهم الى بلادهم بعث معه الملك شاعره أبا دلف ليكون مرافقا لهم .

وزار أبو دلف فى هذه الرحلة كشمير وكابل وسواحل مليبار ، ووصف ذلك كله فى كتاب الفه بعنوان « عجائب البلدان » ، والظاهر انه مجموع رسالتيه فى وصف رحلاته(١٣) .

وفى آخر حكم نصر بن أحمد السامانى وفد على بخارى كذلك وفد صينى ، ويقص أبو دلف قصة هذا الوفد ، فيقول(١٤) :

« ان رسل ملك الصين جاءوا ليخطبوا ابنة الملك السامانى لملكهم ، فأبى نصر بن أحمد ذلك ، واستنكره لحظر الشريعة له ، فلما ابى ذلك عرضوا عليه ان يزوج بعض ولده من ابنة ملك الصين ، فأجاب الى ذلك ، فاغتنمت قصد الصين معهم » .

وكان ذلك نحو عام ٣٣١ هـ : ٩٤٢ م وقد عبر أبو دلف هو والوفد الصينى تركستان الغربية ، وتركستان الشرقية وبلاد التبت ،

---

(١٣) كنت أظن انه كتاب مستقل مفقود ، ولكن أبا دلف يبدو أنه قسمه الى رسالتين ، وذاعت كلمة الرسالة الأولى والرسالة الثانية بدلا عن الاسم الأصلى وهو « عجائب البلدان » ، وقد جرى على ذلك بروكلمان ، فلم يذكر الرسالة الأولى والثانية لأبى دلف ، انما ذكر مكانها كتاب « عجائب البلدان » .

(١٤) ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت .

ودخـل الصين من مدينة « مقـام البـاب » ، فـوادى المقـام ، فسندابل العاصمة ·· ويقول أبو دلف(١٥) :

ودخلت على ملكهم فخاطبته الرسل بما جاءوا به من تزويجـه ابنته من نوح بن الملك السامانى نصر بن احمـد ، فأجابهم الى ذلك ، واحسن الى والى الرسل واقمنا فى ضيافته ، حتى نجزت أمور المرأة ، وتم ما جهزها به ، وحملت الى خراسان ، الى نوح بن نصر ، فتزوج بهـا · ويقـول أبو دلف :

وأقمت بسندابل العاصمة مدة ، ألقى ملكها فى الأحايين ، فيفاوضنى فى أشياء ، ويسألنى عن أمور من أمور بلاد الاسلام ، ثم استأذنته فى الانصراف ، فأذن لى بعـد أن أحسن الى » ·

وغادر أبو دلف الصين الى الهند حتى رجـع الى بلاده عن طريق سـجستان ·

وزادت هـذه الرحلة من مكانة أبى دلف فى دولة السامانيين ، ومن منزلته فى عصره ، وفى الحياة الاسلامية بصفة عامة ·

تنقضى هـذه المشاهد كلها ، ونرى ابن ينبع الكبير يعيش فى ظلال دولة البويهيين ، ولا ندرى كيف كان ذلك ، ولا متى كان ؟

ترك أبو دلف بخارى والسامانيين الى البويهيين ، ووزيرهم الشهير ابن العميد ، ثم وزيرهم الكبير الصاحب بن عبـاد ، والى عـواصهم الكبرى يتنقل بينها : أصبهان ، والرى ، وبغـداد ، وأصبح رفيع المكانة عند عضـد الدولة الملك البويهى نفسه ·

---

(١٥) ٥ : ٤١٤ معجم البلـدان ·· وفى مروج الذهب للمسعودى المؤرخ (ت ٣٤٦ هـ) جـ ١ صفحة ٤٤٩ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد : وقـد رأيت ببلخ شيخا جميلا ذا رأى وفهم وقـد دخـل الصين مرارا كثيرة ولم يركب البحر قط ·· فهـل يقصـد المسعودى بذلك أبا دلف ؟؟

وكان أبو الفضل محمد بن العميد (٣٠٠ - ٣٦٠ هـ) امام عصره فى الأدب والكتابة والبلاغة ، كما كان لـه مجده وهيمنته وسلطانه السياسى فى دولة البويهيين ، وكان وزيرا لركن الدولة البويهى (٣٢٠ - ٣٦٦ هـ : ٩٣٢ - ٩٧٦ م) وذلك من عام ٣٢٨ هـ : ٩٣٩ م .

وقـد بدأ أبو دلف يتصل به ، والظاهر انه اقبـل عليه ثم أعرض عنه ، فهجاه أبو دلف ، ورد عليـه ابن العميد ، مهـددا برسالة رواها أبو حيان التوحيدى فى كتابه « مثالب الوزيرين »(١٦) ، وجاء فيها :

« الآن علمت أيها الشيخ أنك فى مكايد ، والى جميع ما أنهاك عنه مخالف ، وعلى ديدنك المعروف ثابت ، وبفضلة لسانك مسحور » ..

الى أن يقـول ابن العميد :

« تقاعست عنى بلا عـذر ، ووقفتنى بين وصل وهجر ، فلم أدر كيف أخاطبك ؟ وعلى ماذا أعاتبـك ؟ لأنك مشهور بقحـة ، ومذكور بسلاطة ، ومعتاد للبهت ، وجار على الكذب » .

« وأول ذلك أنك تدعى بنوة محمـد بن زكريا من ناحية ابنته ، وقد شاهدت محمـدا وما خلف بنتا » .

ثم يقـول ابن العميد فى غضب ظاهر :

ان فى الموت خلاصا منك ، ومفارقة لمثلك ، والله ما أتدب الا حسن ظنى بك ، ومباهاتى أهـل مجلسى بفضلك ، وقـولى : « أبو دلف وما أدراك ما أبو دلف ؟ لا تنظروا الى هـزله ، فان وراء ذلك جـدا ، وهـو المرء الذى قـد جمع الله لـه بين المنظر والمخبر ، وبين الدعوى والبينة ، وبين القول والحجة ، وبين الضمان والوفاء ،وبين الصـداقة والشفقة » .

---

(١٦) ص ٢٨٩ - ٢٩٢ المرجـع المذكـور .

« فما زلت أقــول هــذا وشبهه ، وأصحابى يشيعون قولى بمثـله فى الظاهر ، ويخالفوننى بعلمهم فى الباطن ، حتى كان الذلج لهم سـاعة هــذه • لأنى احتجت الى علمك فخيبت عهدى ، واقبلت عليـك فأغرضت عنى ، ووهبت لك كلى ، فبخلت ببعضك على •• ولقـد استفدت بمعرفتك تجنب مثلك •• » •

ويقـول أبو حيـان التوحيدى(١٧) :

قلت لأبى دلف : ماذا اجبته عن هــذا الكلام ؟

قال : عملت شيئا لم أجسر على اظهاره ، وخفت صولته ونكايته ، وشره وغائلتــه •

وتوفى ابن العميد عام ٣٦٠ هـ وولى ابنه أبو الفتــح منصب أبيــه فى عهـد ركن الدولة ، ثم فى عهـد مؤيد الدولة الذى كان يؤثر تلميـذ ابن العميد الصاحب بن عبـاد ويقـدمه • وانتهى الأمر بمقتل أبى الفتح الوزير عــام ٣٦٧ هـ •

أما الصاحب بن عباد (٣٢٤ ـ ٣٨٢ هـ : ٩٣٦ ـ ٩٩٥ م) فهـو الوزير البويهى الكبير الذى وزر لبنى بويه طيلة ثمـانية عشر عـاما (٣٦٧ ـ ٣٨٥ هـ) •

وصــار أبو دلف قريب المنزلة من الصاحب(١٨) ، يجلس فى مجالســه في أصبهان والرى منادمنا ، ومادحــا ، وكان الصاحب نادرة الدهر ، وأعجـوبة العصر(١٩) ، وظـل وزيرا مدى ثمانية عشر عاما

---

(١٧) ٢٩٢ مثالب الوزيرين •

(١٨) راجـع عنه : ٢٦٨/٢ ـ ٢٧٠ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ـ كتابى الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العبـاسى الثانى ـ ١٣ : ٩٧ معجم الأدب لياقـوت •

(١٩) ١ : ٧٥ وفيـات الأعيـان •

(٣٦٧ ـ ٣٨٥ هـ) ، وكانت لـه خزانة كتب فيها نحـو ربع مليـون كتـاب(٢٠) ٠

وقـد احتف بالصاحب من نجـوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضـل ، وفرسان الشعر ، من يربى عـددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخـذ برقاب القوافى ، وملك رق المعـانى ٠ فانه لم يجتمع بباب أحـد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع ببـاب الرشيد من فحـول الشـعراء المذكورين ، وجمعت حضرة الصاحب بن عبـاد بأصبهان وجرجان مثل أبى الحسن السلامى ، وأبى سعيد الرستمى ، والبديع الهمـذانى ، والقاضى الجرجانى ، وأبى القاسم بن أبى العلاء ، وأبى دلف ، والصابى ، وسواهم ، ممن يطول ذكرهم كما يقول الثعالبى فى « يتيمـة الدهر »(٢١) ٠

ويذكر الثعالبى أبا دلف من شـعراء الصـاحب ومنادميـه وجلاسـه(٢٢) ٠

ويقـول : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبى دلف مسعر ابن مهلهل الينبغى ، يشعر ويتطيب ويتنجم(٢٣) ٠

وكان الأدباء يجـدون فى ظـل الصاحب أمنا وأمانا لهم ، ممـا حـل بالبلاد فى عهد البويهيين من فقر مدقـع ، فقـد صارت العراق ـ كما يقول المقـدسى ـ بيت الفتن والغلاء(٢٤) ٠ واحترف أكثر العلماء والأدباء صناعة الوراقـة ، كأبى حيان التوحيدى (٣٢٠ ـ ٤١٤ هـ) وغـيره ٠

---

(٢٠) ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقوت ٠

(٢١) ١٦٩/٣ اليتيمـة ٠

(٢٢) ٣ : ١٨٩ المرجـع نفسـه ٠

(٢٣) ٢ : ٤٠٠ المرجـع ٠

(٢٤) ١١٣ أحسن التقاسـيم ٠

واتصل أبو دلف بعضد الدولة(٢٥) الملك البويهى فى بغداد ، وجلس فى مجالسه شاعرا ومنادما ، وتصور لنا القصة الآتية مكانة أبى دلف عند هذا الملك البويهى الكبير ، وقد رواها الثعالبى فى كتابه « لطائف المعارف » :

جرت بين أبى على الهائم وأبى دلف الخزرجى فى مجلس أنس لعضد الداولة بشيراز مطايبة ومداعبة ، ومحاضرة ، ومذاكرة انتصر فيها أبو دلف على صاحبه انتصارا كبيرا ٠

فأعجب عضد الدولة بكلام أبى دلف ، ووفور حظه من طوافه بالشرق والغرب ، ووقوفه على خصائص البلدان فى كل مكان من العالم الاسلامى ٠٠٠ ولم يملك الا بن صاح بملء فيه بهذه العبارة العجيبة التى لم يقلها ملك فى أحد من الأدباء أو الرعية ، قال عضد الدولة فى تعجب ظاهر :

« لله درك يا أبا دلف ٠٠(٢٦) ٠

ملك يا أبا دلف ينادم الملوك » ٠

وأمر له بخلعة وصلة حسنة ٠

وتدل هذه القصة على ما يلى :

١ ـ كثرة طواف أبى دلف بالعالم الاسلامى ، ووقوفه على خصائص كل مصر من أمصاره ، وبلد من بلدانه ٠

٢ ـ حضور بديهته ووفرة أدبه ٠

٣ ـ ما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند عضد الدولة ٠

---

(٢٥) من شعراء عضد الدولة : المتنبى ، والسلامى ، وغيرهما ومن العلماء الذين كانت لهم منزلة عنده أبو على الفارسى الذى أهداه كتابه « الايضاح » (٣ : ٦٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه) ٠

(٢٦) ٢٣٩ المرجع السابق ٠

٤ ـ وفرة حظه من بين منادم الملوى وحسن مجالسهم ٠

وتوفى عضد الدولة عام ٣٧٣ هـ ثم توفى بعده بعده بزمن ليس بطويل وزيره الصاحب ، وذلك عام ٣٨٥ هـ ٠

ـ ٣ ـ

ويحتل أبو دلف منزلة ضخمة بين الرحالة المسلمين والجغرافيين العرب على مرور الأيام ٠

ويعد من أشهر الرحالة المسلمين فى القرن الرابع الهجرى ، وقد بهر العالم بما قام به من رحلات ، وما كتبه عن مشاهداته ووصافه للبلاد التى رحل اليها وطاف بها ٠٠ وقد حفظ لنا ابن النديم فى كتابه « الفهرست » وياقوت فى « عجائب المخلوقات » ، « آثار البلاد » مقتطفات كبيرة من وصف أبى دلف للبلاد التى جابها ٠ والأسفار التى قام بها رحالتنا العالمى المسلم أبو دلف فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، فى انحاء كثيرة من العالم المعروف آنذاك : الهند والصين ، وآسيا الوسطى ، وهى الأسفار والرحلات التى طار ذكرها ، وشهر أمرها بين الناس فى عصر أبى دلف وبعد عصره حتى اليوم ، والتى نال أبو دلف بها فى حياته مجدا كبيرا ، قاده الى قصور الملوك والوزراء والأمراء ، ونال بها بعد وفاته مجدا تليدا خالدا فيما كتبه عنه أعلام المستشرقين من كتابات ، وما حفلت به دوائر الاستشراق عن رحلاته من معلومات ، وما سجل عنه فى دوائر المعارف من عجائب الكشوف الجغرافية ٠

يصفه ابن النديم(٢٧) بالجوالة ، ويذكر القزوينى أنه كان جوالة مشهورا جاب البلاد وشاهد عجائبها(٢٨) ، وأنه كان سياحا زار البلاد ، وأخبر بعجائبها(٢٩) ٠

---

(٢٧) ٣٤٦/١ الفهرست ٠
(٢٨) ٢٦٧/٢ آثار البلاد ٠
(٢٩) ٩٧ عجائب المخلوقات ٠

ويذكر كذلك القزوينى بلاد بهى وعجائبها وهى من بلاد الترك ، ثم يقول : اخبر بهـذه كلها ، أعنى بلاد الترك وقبائلها ، مسعر ، فانه كان سـياحة رآها كلهـا (٣٠) ٠

وما كتبه أبو دلف عن سياحاته ورحلاته يشهد لـه الباحثون من المستشرقين بالدقـة والصدق والواقـع ، وان كان ياقـوت الحمـوى يقول عنه : انه كان يحكى عنه الكذب(٣١) ، ويعنى بذلك أن رحـلاته كان بعضها من نسج الخيال ، وتكفل لنـا بالرد على هذا الاتهام كراتشوفسكى وسواه من المستشرقين ، وسيأتى كلامهم ٠

ولقـــد كان أبو دلف احـــد الباحثين المعـدودين الذين مكنتهم وحـدة الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى من القيام برحلات خطيرة ، على جانب كبير من الأهمية ٠

فمع أن العالم الاسلامى فى عصر أبى دلف ، وهـو القرن الرابع الهجـرى ، كان مقسما الى دول كثيرة ، استلبت عن خلافـة بغـداد ، وتركت التبعية السياسية للخلفاء العباسيين ، الا أنه كان موحـد العقيدة واللغـة والثقافة والحضارة ، خاضعا للتأثير الاسلامى وحـده ، ومن ثم كان فى امكان ابى دلف أن يجرب البـــلاد ، وأن يسير فى للمـالك الاسلامية ، للبحث والكشف والتنقيب ، لا يحـده حـد ، ولا يغـله قيد ، ولا يحـول بينه وبين نهمه العلمى حائل ٠

وقـد ألف أبو دلف « الرسالة الأولى » وتحتوى على رحلتـه غبر الصين والهند التى قام بها عام ٣٣١ هـ ٩٤٢ م ، وقـد قـام المستشرق الألمـانى رور صـوبر عام ١٩٣٩ بتحقيقها ، ويبـدو أن أبا دلف جمـع مادتها من الذاكرة بعـد قيـامه برحلته هـذه بمـدة تطـول أو تقصر ، وتتضمن لرسالة الى جانلا صـدقها الكثير من المعـــلومات التقريبية والخيالية عن هـذه البلاد الواسعة ، التى ساح فيها ٠

---

(٣٠) ٨٥٩ المرجـع السـابق ٠

(٣١) ٣٢٦/٥ معجم البلـدان لياقـوت ٠

وفى مقـدمة هـذن الرسالة يقول أبو دلف(٣٢) ٠

« انى لما رايتكما يا سيدى - اطـال الله بقـاءكما - لهجـين بالتصنيف ، مولعين بالتأليف ، احببت أن لا اخلى دستوركما ، وقانون حكمتكما ، من فائدة وقعت الى مشاهدتها ، وأعجـوبة رمت بى الأيام اليها ، ليروق معنى ما تتعلمانه السمع ، ويصبو الى استيفاء قراءته القلب ، فرأيت معاونتكما ، لما وشج بيننـا من الاخـاء ، وتوكـد من المودة والصـفاء » ٠

والظـاهر ـ كما ارجـح ـ أنه يخاطب احـد المـلوك الساسانيين والصاحب بن عباد ، وأنه حين كتب هـذه الرسالة اهـدى منها نسخة الى هـذا ، واخرى الى ذاك ، وهـذا يدل على انه كتبها بعـد عهـد طـويل من قيـامه بالرحلة ٠

وقـد كتب كثير من المستشرقين روايات طويلة عن هـذه الرسالة :

درسها وستنفلد عام ١٨٤٢ ، وسلوزر عام ١٨٤٤ وطبعها وترجمها الى الألمـانية ، وشاركة فى ذلك المستشرق فراين فى « مجموعة الرجلات والنصوص الجغرافية التى نشرها عن الشرق الأقصى ٠

وألقى المستشرق الروسى غريغوريف عام ١٨٧٦ بحثـا عنها فى المؤتمر الدولى الثالث عشر للمستشرقين المنعقـد فى بطرسبرج ٠

ودرسها روزن ، وماركفارت (١٩٠٣) ، ووضح خط رحلة أبى دلف الى الصـين ٠

وكذلك فعمل بارتولد ، ومينورسكى (١٧٦٧) الذى قال عنها : أن فى الرحلة من الوقائع بعضها حقيقى ، وبعضها من نسج الخيـال ، وفى وصف ابى دلف لرجلاته ـ كما يقول مينورسكى ـ خلط وتعقيـد

---

(٣٢) ٤٠٨/٥ و ٤٠٩ معجم البلـدان ٠

شديدان ، وان كان يعد خلاصة للمعارف الجغرافية آنذاك عن الصين والهند ، ويشكك أخيرا هذا المستشرق فى حدوث رحلات أبى دلف .

ويرد عليه كراتشكوفسكى فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى »(٣٣) مؤكدا أن رحلة أبى دلف الى الصين واقعة حقيقية لا شك فيها ، ويؤكد حدوثها روايات ابن النديم فى كتابة « الفهرست » عن أبى دلف(٣٤) . بل أن الرجل لم يترك أدنى شك لدى خبير بالموضوع مثل فيراين (١٩١٣) .

ويؤكد رور صوير (١٩٣٩) أنه لا أساس للقول بأن الرحلة من نسج الخيال ، اذ أن بعض التفاصيل المتعلقة بها وجدت دلائل على صحتها فى سفارات متاخرة ، مثل سفارة شاهرخ ، كما أكد الباحثون دقة ملاحظات ابى دلف فى محيط الظواهر الطبيعية والتاريخية وفى وصفه لمشاهده عامة .

وفى هذه الرحلة يذكر ابو دلف الأوانى الصينية وانهـا كانت مفضلة فى الأسواق ، وان الخزف الصينى كان يقلد فى بعض البلدان ، ولا سيما فى مليبار وايران .

وفيما بين عام ٣٣١ ـ ٣٤١ هـ : ٩٤٢ ـ ٩٥٢ م ، زار أبو دلف بتشجيع من الصاحب الوزير على ما أظن وكما اشار الى ذلك الثعالبى ق « اليتيمة » ، أمكن مختلفة فى ايران وآسيا الوسطى فى حماية الوالى على سيستان من قبل ابى محمد بن أحمد (٣٣١ ـ ٣٥٢ : ٩٤٢ ـ ٩٦٣) وألف ابو دلف فى وصف هذه الرحلة ومشاهد منها عبر ارمينية واذربيجان وايران رسالة سماها « الرسالة الثانية » ، ويقول فى مقدمتها على طريقته نفسها فى مقدمة الرسالة الأولى .

« جردت لكما ، يا من أنا عبدكما ، ادام الله لكما العز والتأييد ،

---

(٣٣) ص ١٨٩ من الكتاب .

(٣٤) ٣٤٦ و ٣٤٧ الفهرست : ٣٥٠ و ٣٥١ الفهرست أيضا .

والقدرة والتمكين ، جملة من سفرى من بخارى الى الصين ، ورجوعى منها على الهند ، وذكرت بعض أعاجيب ما دخلته من بلدانها ، وسلكته من قبائلها ، ورأيت الان تجريد رسالة ثانية ، تجمع عامة ما شاهدته وتحيط بأكثر ما عاينته · لينتفع به المعتبرون ، ويتدرب به أولو العزة والطمانينة ، ويثقف به رأى من عجز عن سياحة الأرض »(٣٥) ·

واللذان يوجه هما أبو دلف اليهما فى هذه الرسالة هما اللذان وجه اليهما الرسالة الأولى ، كما يبدو من هذه المقدمة الموجزة الصغيرة ·

ولهذه الرسالة الثانية فى وصف رحلته فى أواسط آسيا أهمية كبيرة ، كما سنذكر بعد قليل ·

وتبدأ وقائع هذه الرحلة التى تسجلها الرسالة الثانية من مدينة « الشيز » فى جنوبى اذربيجان لتشمل أماكن كثيرة فى خراسان وايران والقوقاز وارمينية · ومن هنا كانت الرسالة الثانية من المصادر العربية القيمة ذات الفائدة الكبيرة للتاريخ العام والتاريخ الجغرافى والجيولوجى والأثرى لهذه البلاد ، وهى الى الى جانب هذا تحتوى على كثير من الأشياء الطريفة ، والمشاهدات العجيبة ، والشوادر الغريبة ، وبعضها مما يحير العقول ·

وتتميز هذه الرسالة بتركيز شديد ، ودقة متناهية وموضوعية غريبة ، كما تتميز بمادتها العلمية القيمة التى تضعها فى عداد المصادر الأولى للتاريخ العام والجغرافى لآسيا الوسطى · وتحتوى على معلومات جلية متعلقة بالمصادر النفطية فى باكو ، وعن المعادن المفيدة فى ارمينية ، وأبو دلف أحد الرحالة الأوائل الذين تحدثوا عن استخراج النقط فى باكو ، وما أروع ما كتبه عن معدنيات وطواحين تفليس ،

---

(٣٥) ٢٩ و ٣٠ الرسالة الثانية طبع القاهرة ، نشر عالم الكتب ـ مطبعة مخيمر · وقد وردت كلمة ثانية ، فى الرسالة (ص ٢٩) محرفة الى كلمة « شافية » وهى خطأ ·

ولا يستغنى عن دراستها مؤرخ أو جغرافى أو جيولوجى ، وفيها يذكر أبو دلف أكثر من أربعين موضعا يوجد فيها المعادن ، وأماكن اخرى فيها آثار للفرس أو للساسانيين ٠

ولقد حقق مينورسكى هذه الرسالة ، وطبعت بمصر عام ١٩٥٠ فى ٣١ صحفة بالنص العربى + ١٣٦ صفحة الترجمة الانجليزية والدراسة ٠

ثم طبعت فى موسكو بتحقيق خالدوف وبلغاركوف عام ١٩٦٦م ٠

وطبع تحقيقهما فى القاهرة بترجمة محمد منير موسى عام ١٩٩٦٦ م ٠

وفى عام ١٩٢٤ عثر فى مدينة مشهد الايرانية على مخطوطة تشتمل على اربع رسائل :

١ ـ رسالة أبى دلف ٠

٢ ـ رسالة ابن فضلان ٠

٣ ـ رسالة فى أخبار البلدان لابن الفقيه ٠

٤ ـ رسالة اخرى ٠

وأصبح لهذه المخطوطة اهمية كبيرة فى تراث أبى دلف ، وفى تاريخ البحث العلمى الجغرافى القديم ٠

ورسالة ابى دلف فى مخطوطة مشهد تشتمل على رسالتيه الأولى والثانية وقد ذكرت على أنهما كتاب واحد ٠

ويبدو أن هذا الكتاب كان قديما يسمى « عجائب البلدان » كما نقلنا عن القزوينى وياقوت ، وذكره بهذا الاسم كذلك بروكلمان ٠

وأبو دلف فى رحلاته يعني عناية شديدة بذكر أماكن المعادن والآثار ، وطالما يقف أمام الأشياء وقفة تامل للوصول الى دخائلها ٠

ومن اهمية البحث الجغرافى الذى قـام به ابو دلف انه عرض لمدينة الشيز ، وهى بين المراغة وزنجان وشهر زور ، وتوجـد الآن فى وادى ساركوتز فى الاتحاد السوفيتى . ومن وصف ابى دلف لهـذه المدينة : امكن للعلماء الروس تحـديدها واستخراج آثار تخت سـليمان من تحت طبقاتها الأرضية . ومن مثـل تحقيقاته العلمية ما ذكره فى صعوده الى قمـة جبـل ديكاوند فى فارس ودخـوله كهفـا فى هـذا الجبل ورصـده لظاهرة وجـود نار مشتعلة فيـه(٣٦) .

ويذكر أبو دلف أنه سار فى مغـارة خوارزم ، ورأى بها آثارا كثيرة لجماعة من ملـوك العرب والعجم ، ويتحـدث عن انخساف بعض قراها تحت الأرض بنحـو مائة قامة .

ويشكك بعض الباحثين فى وصول ابى دلف الى خوارزم بدعوى أن معلوماته عن هـذه البـلاد عامة ضحلة ، ولكن ذلك لا يقف حجـة لهـذا الشـك .

وبعـد فقـد كان ابو دلف ابن ينبـع ، من أعظم الرحالين الجغرافيين المسلمين ، الذين ظهروا فى القرن الرابع الهجرى . وقـد نالت رسـالتاه أعظم اهتمام فى عـالم الاستشراق ، وأولاه المستشرقون كثيرا من العنـاية والدراسـة والبحث .

وعمل ابى دلف فى ميدان الرحلة متعـدد : فهـو يظهر لنـا فى صـورة الرحالة الوصاف للجغرافية الاقليمية القـديمة .

كما يظهر فى صـورة الجغرافى المتمـكن ، والأثرى المنقب ، والجيولوجى الدقيـق العـالم بطبقـات الأرض وصخورها ، ممـا يرفـع من منزلته بين العلمـاء .

---

(٣٦) الرسـالة الثانيـة ص ٨٧ .

ويظهر لنا كذلك فى صورة الطبيب الذى يعلم أماكن المصحات الطبيعية التى تلائم طبيعة المرضى والتى تساعدهم على الشفاء ·

ويصدق عليه ما قاله المسعودى عن نفسه : « قطعنا بلاد السند والزنج ، والصين والزانج ، فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بأواسط أرمينية وأذربيجان »(٣٧) ·

- ٤ -

وقد عاش أبو دلف عالم ينبع وأديبها وشاعرها فى عصر ازدهار الشعر ونهضته فى القرن الرابع الهجرى ·

وشهر - أول ما شهر ابن ينبع - بالشعر ، فقصد به ملوك الساسانيين ووزراءهم يمدحهم ، وينشد فيهم القصائد الطوال ، ثم ذهب الى البويهيين ، ملوكهم ووزرائهم ، فمدحهم بقصائده الجياد ·

ومن الأسف أن شعر أبى دلف أو ديوانه يعد مفقودا حتى اليوم ، ولا نعرف له الا القليل جدا من شعره ، مما سجله الثعالبى فى « اليتيمة » ، ومن أهم ما حفظه الثعالبى لنا من هذا التراث الشعرى قصيدة أبى دلف - أو رائيته الساسانية ·

---

(٣٩) مقدمة الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودى (ت ٣٤٦ هـ) ·

الفصــل الرابــع

أبو دلف فى كتابات الباحثين ـ عصره ـ صــور من حياته

ابو دلــف فى كتــابات الباحثين :

ابو دلف شاعر عربى كبير ، مجهول شانه ، مغمور تاريخه ، لم يذكره الا القــلة من المؤلفين القــدماء ، ونسيه المحــدثون نسيانا تاما ٠

وهــو من الجزيرة العربية ، من ينبع عاش القرن الرابع الهجرى كله او جلــه ، يجــوب البلاد ، ويمدح الملوك ، وينادم الأمراء والوزراء، تراه مطوفا فى كل مكان من بخارى الى الصين والهند ، ومن فارس الى ارمينية وأذربيجان وطبرستان ، وبلاد الأكراد ، ويصف كل ما شاهده ، ويدون كل ما يلاحظه ، فى دقــة تامة ، وعناية بالتفاصيل ، مما اذهــل اوستشرقين ، فكتبوا عنه جغرافيا من الطراز الأول ، ومن اشهر الرحالة فى القرن الرابع ٠

وأبو دلف من هــذا الجانب مصــدر اصــيل لكل الجغرافيين المسلمين ، الذين اتوا بعــده ، ومن بينهم : ياقوت الحمــوى فى كتــابه « معجم البلــدان » ، والقزوينى فى كتابيــه : « عجــائب المخــلوقات » و « آثار البــلاد » ٠

والمصــدر العربى القــديم الذى ترجم لأبى دلف شاعرا ترجمــة ادبية ، ليس فيها شىء من التفصيل عن حيــاته ، هــو كتاب « يتيمــة الدهــر » لأبى منصور الثعــالبى شيخ الأدباء فى اواخر القرن الرابع وأوائل القــرن الخامس الهجــرى (المتوفى عام ٤٢٩ هـ) ، فقــد ذكره الثعالبى فى البــاب السادس الذى خصــه بالشعراء الطارئين من الآفاق على الوزير الصاحب بن عبــاد ، وقال عنــه «

« ابو دلف الخزرجى الينبوعى ، مسعر بن مهلهل ، شــاعر كثير

الملح والظرف ، مشحوذ المدية فى الجدية ، خنق التسعين فى الاطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب فى خدمة العلوم والآداب » ، ويستمر الثعالبى فى الحديث عن أبى دلف ، فيقول : « كان ينتاب ـ يقصد ـ حضرة الصاحب بأسبهان ، ويكثر المقام عنده ، ويتزود كتبه ـ أى رسائله التى تتضمن التوصية ـ فى أسفاره » ٠

ويشير الثعالبى الى معركة الهجاء التى دارت بين أبى دلف والشاعر السلامى (٣٣٦ ـ ٣٩٤ هـ) ٠

ويذكر شعرا لأبى دلف ، وقصيدته الساسانية الطويلة(١) ٠

وفى موضع آخر من اليتيمة يقول الثعالبى عنه : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكمى بأبى دلف مسعر بن مهلهل الينبغى ، يشعر ويتطبب ويتنجم ويحسد السلامى على منزلته(٢) ٠

ويشير الثعالبى الى أبى دلف فى بعض كتبه الأخرى اشارات عابرة ، مثل كتابه « لطائف المعارف » ٠

ونجد نقولا جغرافية كثيرة عنه فى : « عجائب المخلوقات » و « آثار البلاد »(٣) ، وهما للقزوينى ، وفى « معجم البلدان » لياقوت الذى يشير الى أبى دلف فى ٣٤ اقتباسا ، ودراسات كراتشوفسكى تذكر ٢٤ اقتباسا لا يذكر فيها ياقوت اسم أبى دلف ٠

وفى دائرة المعارف الاسلامية فى مادة « مسعر » ترجمة له تبين

---

(١) راجع ٣ : ٢٥٢ وما بعدها يتيمة الدهر ٠ للثعالبى ـ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ٠

(٢) ٢ : ٤٠٠ يتيمة الدهر ٠

(٣) فى كتاب « آثار البلاد » يوجد ٢٤ اقتباسا من « الرسالة الثانية لأبى دلف » وان كان لا يشير الى أبى دلف الا فى سبع منها ، وفى عجائب المخلوقات توجد كذلك اشارات كثيرة له ، وأربع اقتباسات دون اشارة الى اسمه ٠

الكثير من دراسات المستشرقين عنه رحالة كبيرا ، وجغرافيا مشهورا(٤) ٠

وتجيء اشارات صغيرة عنه فى كتاب « بلاد ينبع » للشيخ حمد الجاسر(٥) ٠

وفى كتاب الأعلام للزركلى ترجمة لأبى دلف فى عدة سطور ومما جاء فيها عنه : شاعر رحالة ، وكان يكنى بالرحالة الحجازى ، قام برحلة ممتعة الى الشرق الأقصى ، وكتب ما شاهده فى تلك الديار فى كتاب ضخم ، نقله المستشرقون عنه الى مختلف اللغات الأوربية ، تجاوز التسعين من عمره توفى نحو عام ٣٩٠ هـ(٦) ٠

ويلاحظ الشيخ حمد الجاسر على الترجمة امرين :

الأول أن الزركلى نسبه الى ينبع البحر ، وهو من ينبع النخل ٠

والثانى قوله : فى « كتاب ضخم » ٠٠ ويقول العلامة الجاسر : انه ليس مجلدا ضخما بل رسالة ، وقد حققها المستشرق مينورسكى وطبعت فى مصر سنة ١٩٥٥ فى ٣١ صفحة والنص العربى والترجمة الانجليزية والدراسة فى ١٣٦ صفحة ٠

وكلام العلامة الجاسر صحيح فى أنه ليس كتابا ضخما بل رسالة ، وأما قوله : « ان الرسالة حققها المستشرق مينورسكى الخ » فذلك ليس عن رسالة ابى دلف فى وصف رحلته الى الشرق الأقصى ، وهى التى تسمى بالرسالة الأولى ، بل رسالة ابى دلف فى وصف رحلته فى آسيا الوسطى وهى التى تسمى الرسالة الثانية ٠

---

(٤) راجع الطبعة الانجليزية الجديدة من دائرة المعارف الاسلامية وقد ترجم النص الانجليزى لهذا البحث الأستاذ وديع فلسطين ـ الطبعة العربية لم تصل الى هذه المادة ٠

(٥) ١١٧ و ١٤٥ بلاد ينبع ٠

(٦) ٨ : ١٠٩ الأعلام للزركلى ٠

والرسالة الأولى لأبى دلف عنى بتحقيقها اومستشرق الألمـــانى روز صـــوير ٠

أما الرسالة الثانية فعنى بتحقيقها المسشرقون الروس ، فدرسها المستشرق كراتشوفسكى ، ومينورسكى ، وحققها مينورسكى ، ثم خالدوف ويولغاكوف معا فى نصها العربى ، وهما مدرسان بجامعة ليننجراد ٠

عصـر ابى دلـف :

عاش ابو دلف فى القرن الرابع الهجـــرى ، العاشر الميلادى ٠٠ وشاهد كل أحداث هـذا القرن وغرائبه ، بما ساد فيــه من حضارة وازدهار للعلوم والآداب ، وبما سادة من تطورات فكرية وسياسية كبيرة ، كان فى مقدمتها : انتهاء نفوذ الخلافة العباسية ، باستيلاء البويهيين على بغـداد عام ٣٣٤ هـ ، وقيام الدول المستقلة عن الخلافة فى أنحاء العـالم الاسلامى الذى كانت من قبـل تجمعـه رابطـة سياسية واحـدة ، ومن هـذه الدول :

١ ـ الدولة الاخشيدية بمصر والشام (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ) ٠

٢ ـ الدولة الفاطمية بمصر والشام ايضا (٣٥٩ ـ ٥٦٧ هـ) ٠

٣ ـ والحمدانية بحلب والموصـل (٣١٧ ـ ٣٩٤ هـ) ٠

٤ ـ والسامانية فى تركستان ، وعاصمتها بخـارى (٢٧١ ـ ٣٨٩ هـ) ٠

٥ ـ والزيارية فى طبرستان ، ومن ملوكهـا الشاعر الأمير قابوس ابن وشمكير (٣٦٦ ـ ٤٠٣ هـ) ٠

٦ ـ والغزنوية فى غزنة والهند ، ومن أشهر أمرائها السـلطان محمود الغزنوى (٣٨٨ ـ ٤٢١ هـ) ٠

٧ - ودولة سجستان ومن أشهر أمرائها خلف بن أحمد ، وهو من أحفاد الليث(٧) بن الصفار ، وامتدت هذه الدولة من عام ٢٥٤ هـ حتى عام ٣٩٠ هـ ٠

٧ - الدولة العلوية فى طبرستان ، ويذكر أبو دلف طائفة من ملوكها حتى عصره(٨) (٢٥٠ - ٣١٦ هـ) ٠

وقد أثرت الاضطرابات والحروب بين هذه الدول فى القرن الرابع الهجرى فى أحوال البلاد الاسلامية والمسلمين ٠

نشأة أبى دلف الأولى :

لا نعلم شيئا عن حياة أبى دلف الأولى ونشأته ٠ وبلا ريب قد تثقف ثقافة واسعة - وشب عربيا كريما عزيز النفس ذا شخصية قوية مهيبة مرحة ، فى وسامة ولطف ٠ وكانت ينبع النخل آنذاك مركزا من مراكز العلم والأدب والشعر ، وصار أبو دلف شاعرا ، وعرف كذلك طبيبا ومنجما ، وليست « ساسانيته » بمناقضة لعزة نفسه ، فقد كانت ساسانية وفكاهة وأدب وطواف بالآفاق ٠

وفجأة ينبو بأبى دلف وطنه ، وتسير به الحياة الى الأمير السامانى نصر بن أحمد (٣٠١ - ٣٣١ هـ : ٩١٤ - ٩٤٢ م) ، فيحتل عنده منزلة عالية فى دولته ، وقد يكون الشعر أو الطب بدء صلته بالأمير ، ومهما كان ، فقد صار أبو دلف شاعر الأمير ونديمه ، وصار كذلك سفيره فى كثير من المهام الرسمية ٠٠ كما سنرى ذلك فى الفصل التالى ٠

---

(٧) ٣ : ١٨٨ ذيل تجارب الامم لمسكويه ٠

(٨) ٨٣ و ٨٤ الرسالة الثانية لأبى دلف ، - نشر عالم الكتب بالقاهرة ٠

الفصل الخامس

أبو دلف فى ظلال السامانيين

ـ ١ ـ

السامانيون(١) اسرة فارسية كبيرة لعبت دورا خطيرا فى القرن الثالث الهجرى حتى نال أميرها نصر السامانى (عام ٢٦١ هـ) فى عهد الخليفة المعتمد على الله استقلالا ذاتيا ، وظل يحكم بلاده من عاصمته سمرقند حتى وفاته سنة ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م ٠٠ وخلفه من ذريته :

١ ـ اسماعيل السامانى (٢٧٩ ـ ٢٩٥ هـ) ٠

٢ ـ احمد بن اسماعيل (٢٩٥ ـ ٣٠١ هـ : ٩٠٧ ـ ٩١٤ م) ٠

٣ ـ نصر بن أحمد السامانى (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ : ٩١٤ ـ ٩٤٣ م)، وهو الذى عاش فى ظلاله أبو دلف ، ولا نعرف شيئا عن الظروف التى قادته الى بلاط هذا الأمير ، ولا مقدمات صلته به ٠ وفى عهد هذا الأمير السامانى كانت الدولة السامانية قد بلغت أوج عزتها وذروة مجدها ٠

٤ ـ نوح بن نصر (٣٣١ ـ ٣٤٣ هـ : ٩٤٣ ـ ٩٥٤ م) ٠

٥ ـ الى ملوك آخرين طار صيتهم فى العالم الاسلامى ، ومنهم : نصر بن نوح السامانى (٣٤٣ ـ ٣٧٦ هـ) ، ونوح بن منصور (٣٦٦ ـ ٣٨٧ هـ) ٠

وكانت بخارى قد صارت عاصمة السامانيين ، واصبحت تزخر بالأدباء والعلماء والشعراء والحكماء ٠٠٠

---

(١) راجع ١١ : ٧٦ ـ ٨٢ دائرة المعارف الاسلامية ٠

وكان الجيهانى(٢) أبو عبد الله محمد بن احمد بن نصر وزيرا للسامانيين (توفى عام ٣٣٠ هـ/٩٤١ م) ، وكان يشجع الأدباء ، ويحتفى بالعلماء ، ولعله هو الذى احتضن ابا دلف ، او اتخذه كاتبا له ، وعن طريقه توطدت صلته بالملك السامانى نصر بن احمد .

- ٢ -

وفى عهد الملك نصر بن احمد وفد الى بخارى وفد هندى برياسة الأمير الهندى كلاتلى فى سفارة هندية الى بلاط الملك السامانى ، وانجز هذا الوفد مهمته ، وعند عودتهم الى بلادهم بعث معه الملك شاعره ابا دلف ليكون مرافقا لهم .

وزار ابو دلف فى هذه الرحلة كشمير وكابل وسواحل مليار ، ووصف ذلك كله فى كتاب ألفه بعنوان « عجائب البلدان » ، والظاهر انه مجموع رسالتيه فى وصف رحلاته(٣) .

---

(٢) راجع عنه ٢١٩ - ٢٢٣ تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشوفسكى ، وينقل القزوينى عن الجيهانى كثيرا فى المسالك والممالك الشرقية (راجع كتاب عجائب المخلوقات للقزوينى) .

وينسب هذا الوزير الى جيهان احدى مدن خراسان ، ويقول ياقوت عنه (٣ : ١٩٥ معجم البلدان) : انه كان اديبا فاضلا . وقد الف الجيهانى كتابا فى صورة العالم - اى فى الجغرافيا - بعنوان « المسالك فى معرفة الممالك » وذلك نحو عام ٣١٠ هـ : ٩٢٢ ، وهو مفقود .

والجيهانى هو الذى شجع ابا دلف وابن فضلان على أعمالهم الجغرافية .

وهو الذى اغرى ابا زيد البلخى (٢٣٥ - ٣١٨ هـ) الفلكى بالانتقال الى بخارى ، وكان بين البلخى والجيهانى صلة وثيقة ، ولكن البلخى اعتذر له ، وألف البلخى كتابه « صورة الأقاليم عام ٣٠٨ هـ ٩٢٠ م » بتشجيع من الجيهانى . وفى مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت مخطوط بعنوان « ذكر المسافات وصورة الأقاليم لأبى زيد البلخى » وهو برقم ١٤ جغرافيا - ويذكر الأستاذ احمد عبد الغفور عطار أن نسبة هذا المخطوط الى البلخى خطأ وأنه كتاب ابن خرداذبة المطبوع بعنوان « المسالك والممالك » .

(٣) كنت اظن انه كتاب مستقبل مفقود ، ولكن ابا دلف يبدو انه قسمه

وفى آخر حكم نصر بن أحمد السامانى وفد على بخارى كذلك وفد صينى ، ويقص أبو دلف قصة هذا الوفد ، فيقول(٤) :

« ان رسل ملك الصين جاءوا ليخطبوا ابنة الملك السامانى لملكهم ، فابى نصر بن احمد ذلك ، واستنكره ، لحظر الشريعة له ، فلما ابى ذلك عرضوا عليه أن يزوج بعض ولده من ابنة ملك الصين ، فأجاب فى ذلك ، فاغتنمت قصد الصين معهم » .

وكان ذلك نحو عام ٣٣١ هـ : ٩٤٢ م ، وقد عبر ابو دلف هو والوفد الصينى تركستان الغربية ، وتركستان الشرقية وبلاد التبت ، ودخل الصين من مدينة « مقام الباب » ، فوادى المقام ، فسند ابل العاصمة .. ويقول أبو دلف :

واقمت بسندابل العاصمة مدة ، القى ملكهـا فى الأحايين ، فيفاوضنى فى اشياء ، ويسالنى عن امور من امور بلاد الاسلام ، ثم استاذنته فى الانصراف ، فاذن لى بعد أن أحسن الى .. » .

وغادر أبو دلف الصين الى الهند حتى رجع الى بلاده عن طريق سجستان(٦) .

ـ الى رسالتين ، وذاعت كلمة الرسالة الأولى والرسالة الثانية بدلا عن الاسم الأصلى وهو ـ عجائب البلدان » ، وقد جرى على ذلك بروكلمان ، فلم يذكر الرسالة الأولى والثانية لأبى دلف ، وانما ذكر مكانها كتاب ـ عجائب البلدان » .

(٤) ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت .

(٥) ٥ : ٤١٤ معجم البلدان .. وفى مروج الذهب للمسعودى المؤرخ (ت ٣٤٦ هـ) جـ ١ صفحة ٣٤٩ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد : وقد رأيت ببلخ شيخا جميلا ذا رأى وفهم وقد دخل الصين مرارا كثيرة ولم يركب البحر قط .. فهل يقصد المسعودى بذلك أبا دلف ؟

(٦) يروى أن الاسلام دخل الصين فى عهد الخليفة عثمان وفى عصر احد ملوك آل تانغ يقال له : تائى جون ، ويقال أن الملك الصينى الذى ـ

وزادت هـذه الرحلة من مكانة ابى دلـف فى دولة السامانيين ، ومن منزلته فى عصره ، وفى الحيـاة الاسلامية بصفة عامة ٠

وخلال حكم امبراطور الصين « هـوان تسونج » ٧١٢ ـ ٧٥٦ م وقعت فعلا صـدامات مسلحة بين الخلفـاء العرب وهـذا الأمبراطور فى ثلاث مناسبات معروفة وكان أعنقها عـام ١٣٤ هجرية وذلك فى معـركة « تالاس » التاريخية وفى هـذه المعركة هـزم الجيش الصينى بقيـادة « كاوهسين » على يد الجيش العربى وسـجلت هزيمة كبرى فى سـلطة الأمبراطور « تانج » وسط آسيا وبدأت السيطرة العربية على هـذا الجزء من العـالم ٠

ويقـول التاريخ الصينى المخطوط فى هـذه المنطقـة أن علاقات الصـداقة قـد عادت بعـد ست سنوات بين الشعبين الصينى والعربى ٠٠ بل ان شعبنا العربى ساعد بالجنود العرب المسلحين بلاط تانج لاحباط عصيان يقـوده جنرال الحـدود « آن لوشان » ٠

وأول من كتب عن الاسلام باللغـة الصينية هـو « تدهـوان » الذى كان قـد أسر فى معركة « تالاس » ثم قضى نحـو ١١ ـ ١٢ سنة وهـو يتجـول فى شبه الجزيرة العربية قبـل أن يعـود الى مدينة « كانتون » مـع قافلة تجارية وقـد نقـل هـذا الأسير عـددا من الحرف الصناعية وكثيرا من الفنـون ٠

وأن عـددا كبيرا من البعثات والتجارة والجنود العـرب قـد زاروا الصين خـلال حكم تانج فى القرن السابع ، وحتى القرن العاشر وهـو

دخـل الاسلام فى بلاده فى عهـده هـو « سـوزون » من آل تانغ أيضـا ، ويقال كذلك أن الاسلام دخـل الصين فى عصر الرسول عـام ٦٢٨ على يد صحابى هـو ذهاب بن أبى كبشة ، بعثـه الرسول الى كائى هـونغ من ملوك آل سوتى ٠

الزمن الذى دخل فيه الاسلام الى الصين ٠٠ وقد ظهرت آثار حول الاسلام والعرب فى هذه الفترة ولكنها قليلة جدا ٠

فهناك اللوحة الشهيرة النادرة التى تشير الى تاريخ بناء جامع شيان فى السنة ٧٤٢ لحكم منج ، والمعلومات الأكيدة تثبت بناء هذا المسجد فى القرن السادس عشر ٠

كما أن مئذنة مسجد برنتج ،وكذلك القبر الملاصق له والذى يقال أنه قبر « الوقاص » من صحابة النبى صلى الله عليه وسلم،قد ثبت أنه بنى أيام حكم « سونج » بالقرن العاشر الى الثالث عشر » كما أنه ليست هناك أية اشارة فى التاريخ الصينى الى هذا الموضوع ٠

ولكن هناك قول فى الصين بأن مدافن الملائكة فى ليخشان بشوانشكو بمقاطعة فوكين والذى يطلق عليها القبور المقدسة لملائكة الرحمة وتنسب للملاك الثالث والملاك الرابع اللذين أتيا للصلاة كما يقولون ، هنا خلال حكم تانج وقد وصفوهم بالملائكة لأنهم أول المسلمين فى هذه الديار ٠

ولكن هذه القبور فى الحقيقة هى قبور عربية لأولئك العرب الذين عاشوا أيام حكم سونج عندما كان العرب ينظرون الى هذه المقاطعة ويسمونها مقاطعة الزيتون وهى أكبر ميناء فى العالم كما وصفها الرحالة العربى ابن بطوطه ٠

وقد اكتشف فى الأسابيع الماضية بمقبرة سيان الاسلامية ثلاث قطع لعملة ذهبية عربية وهذه بقايا أصلية لهذا العصر الاسلامى فى المنطقة ٠٠ وقد فحصت هذه المقبرة والتى اكتشفت حديثا عام ١٩٦٤ وحفرت عام ١٩٦٥ بواسطة لجنة الآثار الصينية ٠

وقد اتضح أن هذه المابر شبيهة بنفس المقابر الخاصة فى نفس الفترة من الزمن والتى عثر عليها فى مدينة سيان عاصمة الصين

قـديما وقـد بنيت قباب القبور من الطـوب المربع الدائرى ولـه باب فى الناحية الجنوبية يفتح على ممر لـه قبـة يؤدى الى منحـدر ٠

وقـد عثر داخـل هـذه القبور الحـديثة على ثلاث قطع ذهبيـة وثلاث جرات فخارية وآنية من الخزف الصينى وعلى جانبى كل قطعـة عمـلة توجـد نقوش كتبت بالكوفية ٠

ويقول الصينيون انه منذ ظهر الاسلام فى شـبه الجزيرة العربية ، فانه قـد نجح فى أقـل من عشرين عاما فى النفاذ الى سوريا والعراق ومصر ٠ وفى البداية لم يكن للحكام المسلمين عملتهم الخاصة بل كانوا يستخدمون عملات بيزنطـه والعملة الساسانية فى بلاد الفرس والتى كانت منتشرة حينئذ ٠ ولكـــن سرعان ما بداوا يصـــنعون عملتهم وان حافظـوا على الشكل القـائم ٠

وقـد تم انقلاب العملة فى سنة ٧٧ هجرية « ٦٩٦ ـ ٦٩٧ ميلادية » حيث لم تعـد ، وفق المنطق الاسلامى ، فهناك صور للببر أو الحيوانات على العملة ٠٠ وكانت النقوش مقتصرة على اقتباسات من القرآن ٠ وقـد تغيرت عملات كل البلدان الاسلامية بعـد ذلك الى نفس النمط ٠٠ ويضيف رجال الآثار الصينيون قـولهم :

ان هـذه العملات لهـا اهمية خاصة ، لا لانها أول عملات توجـد فى الصين للعصر الأموى ، بل لأنها أول عمـلات اســلامية توجـد فى الصين ٠ والعملات الاسلامية الأخرى التى وجـدت فى سينكيانج تعود الى زمن متأخر جـدا ، الى القرن الحادى عشر ، بل ان اغلبها قـد سك محليا على يد اهالى سينكيانج بعـد أن اعتنقوا الاسلام ٠

وفى عام ١٩٢٨ اكتشف البرفيسور هوامج دين بى فى مقبرة تانج فى تورفان بمقاطعة سينكيانج عملة اسلامية قـديمة ٠

وقـد اطلعنا فى هـذه المقاطعة الاسلامية على عادات وتقاليـــد اسلامية والحقيقة أن الأخـلاق فى الصين كلها مفخرة من مفاخر الاسلام٠

الفصل السادس

أبو دلف فى ظلال البويهيين

ـ ١ ـ

تنقضى هذه المشاهد كلها ، ونرى ابن ينبع الكبير يعيش فى ظلال دولة البويهيين ، ولا تدرى كيف كان ذلك ، ولا متى كان ؟

ترك أبو دلف بخارى والسامانيين الى البويهيين ، ووزيرهم الشهير ابن العميد ، ثم وزيرهم الكبير الصاحب بن عباد ، والى عواصمهم الكبرى يتنقل بينها : أصبهان والرى ، وبغداد ، وأصبح رفيع المكانة عند عضد الدولة الملك البويهى نفسه ٠

ـ ٢ ـ

وتاريخ البويهيين حافل بالانتصارات الكبيرة ، فهذه الأسرة الفارسية(١) التى بسطت نفوذها على خراسان وفارس والعراق ، انتهى الأمر بزعيمها احمد بن بويه الى دخول بغداد فى الحادى عشر من جمادى الأولى عام ٣٣٤ هـ فى خلافة المستكفى بالله ، واصبح بجوار الخليفة سلطانا أو ملكا على الشعوب الاسلامية ، ولقب « معز الدولة » (٣٣٤ ـ ٣٥٦ هـ) ، وخلفه ابنه عز الدولة (٣٥٦ ـ ٣٦٧ هـ) ، ثم عضد الدولة (٣٦٧ ـ ٣٧٣ هـ) ، وغيرهما من ملوك البويهيين ٠

واستبد البويهيون بالخلفاء استبدادا كبيرا ، فلهم الملك والنفوذ والسلطان ٠

---

(١) ينسب البويهيون أنفسهم الى بهرام جور (٨ : ١٩٧ ابن الأثير) ٠ وبهرام جور هو القيصر الساسانى بهرام الخامس (٤٢٠ ـ ٣٤٨ م) ٠ وأحمد معز الدولة ، والحسن ركن الدولة (٣٢٠ ـ ٣٦٦ هـ) ، وعلى عماد الدولة : حكم هؤلاء الاخوة الثلاثة العالم الاسلامى باسم الخليفة العباسى ٠ وأقام معز الدولة فى بغداد ، وركن الدولة فى الرى ، وعماد الدولة فى شيراز ٠

وصار الذى فى ايدى العباسيين انما هو امر دينى اعتقادى لا ملك دنيوى كما يقول البيرونى (ت عام ٤٤٠ هـ) فى كتابه « الآثار الباقية »(٢) ، وحتى صار الخليفة لا يأمن على نفسه وحياته من بطش البويهيين متى أرادوا ٠

خلعوا المستكفى بالله بن المكتفى (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ) ، وولوا مكانه المطيع لله بن المقتدر (٣٣٤ - ٣٧٣ هـ) ثم خلعوه ومات بعد عام ، وولوا مكانه ابنه الطائع لله (٣٦٣ - ٣٨١ هـ) ، وخلعوه وقبضوا عليه وعذبوه وولوا مكانه القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢ هـ) ، فقال فى ذلك الشريف الرضى :

امسيت أرحم من اصبحت اغبطه
لقد تقارب بين العز والهون

ومنظر كان بالسراء يضحكنى
يا قرب ما عاد بالضراء يبكينى(٣)

ومن اشهر وزراء البويهيين وزيران :

أولهما : أبو الفضل محمد بن العميد (٣٠٠ - ٣٦٠ هـ) وكان امام عصره فى الأدب والكتابة والبلاغة ، كما كان له مجده وهيمنته وسلطانه السياسى فى دولة البويهيين ، وكان وزيرا لركن الدولة البويهى (٣٢٠ - ٣٦٦ هـ : ٩٣٢ - ٩٧٦) وذلك من عام ٣٢٨ هـ - ٩٣٩ م ٠

وقد بدأ أبو دلف يتصل به ، والظاهر أنه اقبل عليه ثم اعرض عنه ، فهجاه أبو دلف ، ورد عليه ابن العميد ، مهددا برسالة طويلة

---

(٢) ٢ : ١١٣ المرجع ٠

(٣) ٢ : ٨٦٧ ديوان الرضى ، ٣ : ٢٠٢ تجارب الامم لمسكويه ، كتاب (الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى » ٠

رواها أبو حيـان التوحيدى فى كتـابه « مثالب الـوزيرين »(٤) ، وجاء فيها :

« الآن علمت أيها الشيخ انك لى مكايد ، والى جميع ما أنهـاك عنـه مخالـف ، وغلى ديدنك المعـروف ثابت ، وبفضـله لسانك مسحـور .. » .

الى ان يقـول ابن العميد :

« تقاعست عنى بلا عـذر ، ووقفتنى بين وصـل وهجر ، فلم ادر كيف أخاطبك ؟ وعلى ماذا أعاتبـك ؟ لأنك مشـهور بقحة ، ومذكـور بسلاطة ، ومعتاد للبهت ، وجار على الكـذب » .

« واول ذلك أنك تدعى بنوة محمـد بن زكريا من ناحية ابنته ، وقـد شاهدت محمدا وما خلف بنتـا » .

ثم يقـول ابن العميد فى غضب ظاهر :

ان فى الموت خلاصا منـك ، ومفارقة لمثلك ، والله ما اذنب الا حسن ظنى بك ، ومباهاتى أهـل مجلسى بفضلك ، وقـولى : « ابو دلـف ؟ لا تنظروا الى هزله ، فان وراء ذلك جـدا ، وهـو المرء الذى قـد جمع الله لـه بين المنظر والمخـبر ، وبين الدعـوى والبينة ، وبين القـول والحجـة ، وبين الضمان والوفاء ، وبين الصـداقة والشفقة » .

« فما زلت اقـول هـذا وشـبهه ، واصـحابى يشيعون قـولى بمثله فى الظاهر ، ويخالفوننى بعلمهم في الباطن ، حتى كان الفـلج لهم ساعتى هـذه ، لأنى احتجت الى غليـك فخيبت غهـدى ، وأقبلت عليـك فأعرضت عنى ، ووهبت لك كلى ، فبخلت ببعضك على .. ولقد استفدت بمعرفتك تجنب مثلك .. » .

---

(٤) ص ٢٨٩ – ٢٩٢ المرجـع المذكـور .

ويقـول أبو حيـان التوحيدى(٥) :

قلت لأبى دلف : ما اجبته عن هـذا الكلام ؟

قال : عملت شيئا لم اجسر على اظهاره ، وخفت صولته ونكايته، وشره وغائلتـه ..

وتوفى ابن العميد عام ٣٦٠ هـ وولى ابنـه ابو الفتح منصب ابيه فى عهد ركن الدولة ، ثم فى عهـد مؤيد الدولة الذى كان يؤثر تلميـذ ابن العميد الصاحب بن عباد ويقـدمه وانتهى الأمر بمقتل ابى الفتـح الوزير عام ٣٦٧ هـ .

اما الوزير الثانى من وزراء البويهيين الكبار : فهـو الصاحب ابن عباد (٣٢٤ ـ ٣٨٥ هـ : ٩٣٦ ـ ٩٩٥ م) الوزير البـويهى الكبير طيلة ثمانية عشر عاما (٣٦٧ ـ ٣٨٥) .

وصار ابو دلف قريب المنزلة من الصاحب(٦) ، يجلس فى مجالسه فى أصبهان والرى منادما ، ومادحا ، وكان الصاحب نادرة الدهـر ، واعجـوبة العصر(٧) ، وظـل وزيرا مدى ثمانية عشر عاما (٣٦٧ ـ ٣٨٥ هـ) ، وكانت لـه خزانة كتب فيها نحـو ربع مليون كتاب(٨) .

وقـد احتف بالصاحب من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وابناء الفضـل ، وفرسان الشعر ، من يربى عـددهم على شـعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخـذ برقاب القوافى ، وملك رق المعـانى . فانه لم يجتمع بباب أحـد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد

(٥) ٢٩٢ مثالب الوزيرين .

(٦) راجع عنه : ٢/٢٦٨ ـ ٢٧٠ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ـ كتـابى الحيـاة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثـانى ـ ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقـوت .

(٧) ١ : ٧٥ وفيـات الأعيـان .

(٨) ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقـوت .

من فحول الشعراء المذكورين ، وجمعت حضرة الصاحب بن عباد باصبهان والرى وجرجان مثل : ابى الحسن السلامى ، وأبى سعيد الرستمى ، والبديع الهمذانى ، والقاضى الجرجانى ، وابى القاسم ابن ابى العلاء ، وابى دلف ، والصابى ، وسواهم ، ممن يطول ذكرهم كما يقول الثعالبى فى « يتيمة الدهر »(٩) ٠

ويذكر الثعالبى أبا دلف من شعراء الصاحب ومنادميه وجلاسه(١٠) ٠

ويقول : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بابى دلف مسعر بن مهلهل الينبعى ، يشعر ويتطبب ويتنجم(١١) ٠

وكان الأدباء يجدون فى ظل الصاحب أمنا وأمانا لهم ، مما حل بالبلاد فى عهد البويهيين من فقر مدقع ، فقد صارت العراق - كما يقول المقدسى - بيت الفتن والغلاء(١٢) واحترف أكثر العلماء والأدباء صناعة الوراق ، كابى حيان التوحيدى (٣٢٠ - ٤١٤ هـ) وغيره ٠

واتصل أبو دلف بعضد الدولة(١٣) الملك البويهى فى بغداد ، وجلس فى مجالسه شاعرا ومنادما ، وتصور لنا القصة الآتية مكانة ابى دلف عند هذا الملك البويهى الكبير ، وقد رواها الثعالبى فى كتابه لطائف المعارف » :

---

(٩) ١٦٩/٣ اليتيمة ٠

(١٠) ٣ : ١٨٩ المرجع نفسه ٠

(١١) ٢ : ٤٠٠ المرجع ٠

(١٢) ١١٣ أحسن التقاسيم ٠

(١٣) من شعراء عضد الدولة : المتنبى ، والسلامى ، وغيرهما ٠ ومن العلماء الذين كانت لهم منزلة عنده ابو على الفارسى الذى أهداه كتابه « الايضاح » (٣ : ٦٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه) ٠

جرت بين أبى على الهائم وأبى دلف الخزرجى فى مجلس أنس لعضد الدولة بشيراز مطايبة ومداعبة - ومحاضرة ، ومذاكرة ٠

فقال أبو على لأبى دلف :
صب الله عليك طواعين الشام ، وحمى خيبر ، وطحال البحرين ، وسماميل الجزيرة ، وسناقر دهستان(١٤) ، وضربك بالعرق المدنى(١٥)، والنار الفارسية ، والقروح البلخية ٠

فقال لـه أبو دلف :
يا مسكين ، أتقرأ « تبت » على أبى لهب ، وتنقل التمر الى هجر ٠

بل صب الله عليك : ثعـابين مصر ، وأفاعى سجستان ، وعقـاب شـهرزور ، وجرارات(١٦) الأهـواز ٠
وصب على برود اليمـن ، وقصب مصر ، ودبابيج الروم ، وخزوز السوس ، وحرير الصين ، واكسية فارس ، وحلل أصبهان ، وعمـائم الأبلة ، وسقلاطون(١٧) بغـداد ، وسنجاب(١٨) خـر خـيز(١٩) ، وسمور(٢٠) بلغار ، وثعالب الخـزر(٢١) ، وفنـك(٢٢) كاشـغر ، وفاقم(٢٣) التعز غـز ، وحواصل(٢٤) هرارة ، وتكك(٢٥) ، وجوارب قـزوين ٠

---

(١٤) السنقر والسنقور : طائر من الجوارح أعظم من الصقر وأجمل منه ٠ ودهستان : بلـد مشهور قرب خوارزم وجرجان ٠
(١٥) مرض يصيب الانسان ، ينسب الى المدينة ، لكثرته فيها ٠
(١٦) نوع من الحشرات ٠
(١٦) ثياب من الحرير موشاة بالذهب ٠
(١٨) حيـوان تصنع منـه الفراء ٠
(١٩) موضع ينسب اليـه جنس من الترك ٠
(٢٠) دابة يتخـذ من جلدها فراء ثمينة ٠
(٢١) قبائل على سواحل بحر الخزر (قزوين) ٠
(٢٢) ثعلب صـغير ٠
(٢٣) حيـوان فروه من أفخم الفراء ٠
(٢٤) الجلود تلبس للتدفئـة ٠
(٢٥) رباط السراويل ٠

وأفرشني : بسط ارمينية ، وزلالي قاليقلا ، ومطارح(٢٦) ميسان ، وحصر بغـداد ٠

وأخـدمني : خصان الروم ، وغلمان الترك ، وسراري بخارى ، ووصـائف سمرقنـد ٠

وحملني على : عتاق البادية ، ونجائب الحجـان ، وبرازين طخارستان ، وحمير مصر ، وبغـال برذعـة ٠

ورزقني : تفـاح الشام ، ورطب العراق ، وموز اليمن ، وجـوز الهند ، وباقـلاء الكوفة ، وسـكر الأهـواز ، وعسل اصبهان وتمـر كرمان ، ودبس أرجان ، وتين حلوان ، وعنب بغـداد ، وعنـاب جرجان، واجاص بست ، ورمان الرى وكمثرى نهـاوند ، وسفرجل نيسابور ، ودشمش طوس ، وملبن مرو ، وبطيخ خوارزم ٠

وأشمني : مسك تبت وعـود الهند ، وعنبر الشحر ، وكافور فنصـور(٢٧) وأترج طبرستان ، ونارنج البصرة ، ونرجس جرجان ، ونيلوفر السيروان(٢٨) وورد جور ، منثور بغـداد ، وزعفران قم(٢٩) ٠

فاعجب عضـد الدولة بكلام ابى دلف ، ووفـور حظـه من طوافه بالشرق والغرب ، ووقـوفه على خصائص البلدان فى كل مكان من العالم الاسلامى ٠٠ ولم يملك الا أن صاح بملء فيـه بهـذه العبارة العجيبـة التى لم يقلهـا ملك فى احـد من الأدباء أو الرعية ، قال عضـد الدولة فى تعجب ظاهر :

« لله درك يا أبا دلـف ٠٠(٣٠) ٠

---

(٢٦) بسـط ٠

(٢٧) بلـد قرب الصـين ٠

(٢٨) بلـد بالجبـل ٠

(٢٩) ٢٣٤ ـ ٢٣٩ لطائف المعارف للثعالبى ـ بتحقيق الأبيارى والصيرفى٠

(٣٠) ٢٣٩ المرجـع السـابق ٠

ملك يا أبا دلف ينادم الملوك » ٠

وأمر لـه بخلعـة وصـلة حسنة ٠

وتدل هـذه القصـة على ما يلى :

١ ـ كثرة طواف أبى دلف بالعـالم الاسلامى ، ووقـــوفه على خصائص كل مصر من أمصاره ، وبلـد من بلـدانه ٠

٢ ـ حضور بديهتـه ، ووفرة أدبه ٠

٣ ـ ما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند عضد الدولة ٠

٤ ـ وفرة حظه بين منادمة الملوك وحسن مجالستهم ٠

وتوفى عضـــد الدولة عام ٣٧٣ هـ ثم توفى بعـده بزمن ليس بطويل وزيره الصاحب ، وذلك عام ٣٨٥ هـ ٠

وفـاة أبى دلـف

تقاذفت الأيام بأبى دلف ، وشهد نهاية صديقيه الصاحب وعضد الدولة ، ومرت به السنوات ، من فقر لغنى ، ومن غنى لفقر ، ولم يجد كريمـا كالملك السـامانى ولا كالصاحب الوزير ، ولا كعضد الدولة البـويهى ·

ورأى الحيـاة من حـوله لم تعـد تحتفى بالأدب ، ولا تعير الأدباء جانبـا من رعايتهـا ·

وشاهـد نتائج رحلاته وطـوافه بالبلاد ، وتدويخـه للأرجاء ، تصبح وكأنها ليست شـيئا مذكورا ·

وتذكر زملاءه الشعراء : المتنبى ، السلامى ، القاضى الجرجانى ، وابا سعيد الرستمى ، والبستى ·

وأقرانه من الأدباء والكتاب : الخوارزمى البـديع الهمذانى ، الصابى ، الصاحب ، ابن العميد ·

وقـد طوت كل هـؤلاء الأيام ، ومضت بهم الحيـاة الى مصيرها المحتـوم ·

فأسلم نفسه للمقادير ، الى أن لقـى ربه نحـو عـام ٣٩١ هـ - ١٠٠١ م كما أرجح ، أو عام ٣٩٠ هـ كما ذكر الزركلى فى « الأعلام » ، والعلامة حمـد الجاسر فى كتابه « بلاد ينبع » نقـلا عن « الأعلام » ·

الباب الثالث

رحلات أبى دلف

الفصـل الأول

الرحـالة المسلمون قبـل أبى دلـف

اتسع نطاق الرحلات عند المسلمين اتساعا كبيرا ، بتأثير الحـج والتجارة ، والرغبة فى نشر الاسـلام ، ولطلب العلم ولقـاء العلمـاء ، ولاقتناء الكنوز العلمية والاقتصادية ، وللقيـام ببعض المهـام السياسية ، حيث كان ملوك وأمراء المسلمين يوفـدون الرسل والسفراء الى مختلف أنحـاء العـالم ٠

ومنذ خلافة ابى بكر الصـديق نجـد عبادة بن الصامت ، وهشام ابن العاص ، ونعيم بن عبد الله ، يذهبون الى القسطنطينية فى رسالة من الخليفة أبى بكر الى ملك الروم يدعوه فيها الى الاسـلام ، ويقـول عبادة بن الصامت : واقبلنا حتى أنخنا تحت غـرفة هرقـل ، فقلنـا : لا الـه الا الله والله أكبر ، والله يعلم لقـد انتفضت الغرفة حتى كأنهـا عـذق سعفة ضربها الريح ٠

ولمـا لقـوا قيصر سألهم : ما أعظم كلامكم ؟ قلنا : لا الـه الا الله والله أكبر ، فالله يعلم أنه انتفض سقفه حتى ظـن هـو وأصحـابه أنه سيسقط عليهم ٠٠ ثم دعاهم قيصر ليلا وعرض عليهم صـندوقا فيـه صور الأنبيـاء من آدم الى محمد عليـه السلام(١) ٠

واستمرت الرحـلات السياسية خلال العصور ، فنجـد عمـارة ابن حمزة يحمل رسـالة من المنصور الى ملك الروم(٢) ٠

ومن الرحلات المشهورة رحلة سـلام الترجمان الى سـور الصين

---

(١) راجـع ص ١٤١ - ١٤٣ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ٠

(٢) راجـع ١٣٧ و ١٣٨ المرجـع السابق ٠

الشمالى بأمر الخليفة العباسى الواثق بالله (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ : ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م) ٠

ثم رحلة سليمان السيرافى ، وقد زار الهند والصين مرارا ، وكتب وصف رحلته عام ٢٣٧ هـ ـ ٨٥١ م ، ولهذا الوصف ذيل ألفه فى القرن الرابع الهجرى مؤلف رحالة من سيراف اسمه أبو زيد حسن ، وقد نشر هذه الرحلة المستشرق رينو عام ١٨٤٥ م ، وسليمان السيرافى أول رحالة مسلم يشير الى الشاى الذى يشربه الصينيون كثيرا ، ويسمونه « ساج » ٠

وقد قام بعده ابن وهب القرشى برحلة الى الصين نحو عام ٢٥٦ هـ/٨٧٠ م ٠

وفى كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة أن بعض التجار المسلمين وصلوا الى كوريا ٠

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى نجد أحمد بن فضلان يقوم عام ٣٠٩ هـ/٩٢١ م برحلة الى بلاد البلغار ، وهم الشعب الذى أسس فى بداية العصور الوسطى دولتين : أقدمهما فى حوض الفولجا الوسطى (وهو نهر اتل كما تسميه المصادر الاسلامية) ، أما الأخرى ففى حوض نهر الطونة ٠

وقد زار ابن فضلان الأولى(٣) على نهر الفولجا ، ويذكر ابن رستة فى كتابه « الأعلاق النفيسة » الذى ألفه نحو عام ٢٩١ هـ/ ٩٠٣ م أن أكثر هؤلاء البلغار كانوا ينتحلون الاسلام ، بينما تذكر رحلة ابن فضلان أنهم لم يدخلوا فى الاسلام الا قبيل الرحلة بأعوام ٠

---

(٣) تطلق كلمة بلغار على الشعب ، وعلى البلاد ، وعلى عاصمتها التى كانت تقع شرقى نهر الفولجا ولا يزال بعض آثارها قائمة على مقربة من مدينة قازان الحالية على نحو ستة كيلو مترات من شاطىء الفولجا الأيسر ٠

وقد ذهب ابن فضلان مع وفد بعث به الخليفة المقتدر بالله العباسى عام ٣٠٩ هـ الى ملك البلغار لتعليم شعبه شعائر الاسلام ٠

وقد خرج الوفد من بغداد فى الحادى عشر من صفر عام ٣٠٩ هـ/الحادى والعشرين من يونيو عام ٩٢١ م ، وساروا الى بخارى فخوارزم فبلاد البلغار ، فوصلوها فى الثانى عشر من المحرم عام ٣١٠ هـ/الثانى عشر من مايو عام ٩٢٢ م ٠

وقد ادت هذه البعثة مهمتها ، ولما عادوا الى بغداد ، كتب ابن فضلان رحلته التى تعرف برحلة ابن فضلان ، ويبدو ان ما كتبه هو الذى قدمه الى الخليفة العباسى المقتدر بالله ٠

وقد نقل ياقوت الحموى جزءا من رحلته فى مادة : اتل ، وبلغار ، وخرز ، وخوارزم ٠

ونشرت الرحلة فى روسيا عام ١٨٢٣ ، وافاد منها بروتولد الروسى فى الدراسة التى كتبها عن البلغار فى دائرة المعارف الاسلامية ، ثم عبد الوهاب عزام فى دراستين له غن البلغار المسلمين ٠

وفى عام ١٩٢٤ عثر العالم التركى أحمد زكى الوليدى فى مشهد على مخطوطة نفيسة احتوت على أربعة كتب ، منها رحلة أبى دلف ، ورحلة ابن فضلان ٠

وهذه الرحلة تعد اقدم وصف كتب لجزء من بلاد روسيا ، ولا يعرف رحالة سبق ابن فضلان اليها ٠ ويصف فى رحلته حفل دفن زعيم روسى ، وقد رسم احد الرسامين الروس منذ مائة عام هذا المنظر اعتمادا على وصف ابن فضلان ، وزين بهذا الرسم احد جدارن المتحف التاريخى فى موسكو ٠

وممن زار بلاد البلغار بعد ابن فضلان : أبو حامد الغرناطى

الأندلسى صاحب كتاب « تحفة الألباب ونخبة الاعجاب » عـام ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م ٠

وقـد تحـدث المسعودى (ت ٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م) فى الجزء الأول من كتابه « مروج الذهب » عن البلغار ٠٠ وقـد سقطت مملكة البلغـار نهائيا عام ١٢٣٦ م ، وخرب الروس بلادهم عام ١٣٩٩ م كما تذكر دائرة المعارف الاسـلامية (٤/٩٩) ٠

ومن نتائج هـذه الرحـلات التى قام بهـا الرحـالة المسلمون على مختلف الأجيال معرفتهم من الصينيين للابرة المغناطيسية ، وقـد أخـذها الغرب عن المسلمين فى الحرب الصليبية الثانية ٠

ومن نتائجها تدوينهم لكثير من المعارف الغنية فى تاريخ هـذه البلاد وجغرافيتها القـديمة التى لم يكتب عنها أحـد قبـل الرحـالة المسلمين ، ولا كتب عنها بعـدهم أحـد من الأوربيين الا بعـد أجيـال طـوال(٤) ٠

---

(٤) راجـع : تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشوفسكى ، الرحـالة العرب لنقولا ايادة ، والرحالة المسلمون لزكي محمد حسن ، وأدب الرحلات لشوقى ضيف من سلسلات دار المعارف المصرية عن فنـون الأدب العربى ، تاريخ التمدن الاسلامى لزيدان ، وتاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد ، وحـديث السندباد القـديم لحسين فـوزى ، والجغرافيا والرحلات عنـد العرب لنقـولا زيادة ، ودائرة المعـارف الاسلامية فى مادة رحلات ، رحلة ابن فضـلان بتحقيق الدكتور سامى الدهان (المتوفى فى أغسطس ١٩٧١) وهى من مطبوعات المجمع العلمى العربي بدمشق ٠

الفصل الثانى

جهود أبى دلف فى ميدان الرحلات

١ - يحتل ابو دلف منزلة ضخمة بين الرحالة المسلمين والجغرافيين العرب على مرور الأيام ·

ويعد من أشهر الرحالة المسلمين في القرن الرابع الهجرى ، وقد بهر العالم بما قام به من رحلات ، وما كتبه عن مشاهداته وأوصافه للبلاد التى رحل اليها وطاف بها ·· وقد حفظ لنا ابن النديم فى كتابه « الفهرست » ، وياقوت فى « عجائب المخلوقات » ، و « آثار البلاد » مقتطفات كبيرة من وصف أبى دلف للبلاد التي جابها ، والأسفار التى قام بها رحالتنا العالمى المسلم ابو دلف فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، فى أنحاء كثيرة من العالم ، المعروف آنذاك : الهند والصين ، وآسيا الوسطى ، وهى الأسفار والرحلات التى طار ذكرها ، وشهر أمرها بين الناس فى عصر أبى دلف وبعد عصره حتى اليوم ، والتى نال أبو دلف بها فى حياته مجدا كبيرا ، قاده الي قصور الملوك والوزراء والأمراء ، ونال بها بعد وفاته مجدا تليدا خالدا فيما كتبه عنه أعلام المستشرقين من كتابات ، وما حفلت به دوائر الاستشراق عن رحلاته من معلومات ، وما سجل عنه فى دوائر المعارف من عجائب الكشوف الجغرافية ·

يصفه ابن النديم(١) بالجوالة ، ويذكر القزوينى أنه كان جوالة مشهورا جاب البلاد وشاهد عجائبها(٢) ، وأنه كان سياحا زار البلاد ، وأخبر بعجائبها(٣) ·

---

(١) ٣٤٦/١ الفهرست ·

(٢) ٢٦٧/٢ آثار البلاد ·

(٣) ٩٧ عجائب المخلوقات ·

ويذكر كذلك القزوينى بلاد بهى وعجائبها وهى من بلاد الترك ، ثم يقـول : أخبر بهـذه كلها ، أعنى بلاد الترك وقبائلها ، مسعر ، فأنه كان سياحة رآها كلهـا(٤) ٠

وما كتبه أبو دلف عن سياحاته ورحلاته يشهد لـه الباحثون من المستشرقين بالدقـة والصـدق والواقـع ، وان كان ياقـوت الحمـوى يقـول عنه : انه كان يحكى عنه الكذب(٥) ، ويعنى بذلك أن رحلاته كان بعضها من نسج الخيال ، وقـد تكفل لنـا بالرد على هـذا الاتهام كراتشوفسكى وسواه من المستشرقين ، وسيأتى كلامهم ٠

ولقـد كان أبو دلف أحـــد الباحثين المعـدودين الذين مكنتهم وحـدة الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى من القيام برحلات خطيرة ، على جانب كبير من الأهمية ٠

فمع أن العالم الاسلامى فى عصر أبى دلف ، وهـو القرن الرابع الهجرى ، كان مقسما الى دول كثيرة ، استقلت عن خلافة بغـداد ، وتركت التبعية السياسية للخلفـــاء العباسيين ، الا أنه كان موحـد العقيدة واللغـة والثقافة والحضارة ، خاضعا للتأثير الاسلامى وحـده ، ومن ثم كان فى امكان أبى دلف أن يجـوب البلاد ، وأن يسير فى المـالك الاسلامية ، للبحث والكشف والتنقيب ، لا يحـده حـد ، ولا يغـله قيد ، ولا يحول بينه وبين نهمه العلمى حائل ٠

٢ ــ وقـد ألف أبو دلف « الرسـالة الأولى » وتحتوى على رحلته عبر الصين والهند التى قـام بهـــا عام ٣٣١ هـ ٩٤٢ م ، وقـد قـام المستشرق الألمـــانى رور صـــوير عام ١٩٣٩ بتحقيقها ، ويبـدو أن أبا دلف جمـع مادتها من الذاكرة بعـد قيامه برحلته هـذه بمدة تطول أو تقصر ، وتتضمن الرسالة الى جانب صـدقها الكثير من المعلومات التقريبية والخيالية عن هـذه البلاد الواسعة ، التى ساح فيها ٠

---

(٤) ٥٨٩ المرجـع السـابق ٠

(٥) ٣٢٦/٥ معجم البلـدان لياقـوت ٠

وفى مقـدمة هـذه الرسالة يقول أبو دلف(٦) :

« أنى لما رأيتكما يا سيدى ، أطال الله بقاءكما ، لهجين بالتصنيف ، مولعين بالتأليف ، أحببت أن لا أخلى دستوركما ، وقانون حكمتكما ، من فائدة وقعت الى مشاهدتها ، وأعجوبة رمت بى الأيام اليها ، ليروق معنى ما تتعلمانه السمع ، ويصبو الى استيفاء قراءته القلب ، فرأيت معاونتكما ، لما وشج بيننا من الاخاء ، وتوكد من المودة والصفاء » ·

والظاهر ـ كما أرجح ـ أنه يخاطب أحـد المـلوك السامانيين والصاحب بن عبـاد ، وأنه حين كتب هـذه الرسالة أهـدى منها نسخة الى هـذا ، وأخرى الى ذاك وهـذا يدل على أنه كتبها بعـد عهـد طـويل من قيامه بالرحلة ·

وقـد كتب كثير من المستشرقين روايات طويلة عن هذه الرسالة :

درسها وستنفلد عام ١٨٤٢ ، وسلوزر عام ١٨٤٤ وطبعها وترجمها الى الألمـانية ، وشاركه فى ذلك المستشرق فراين فى « مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية » التى نشرها عن الشرق الأقصى ·

وألقى المستشرق الروسى غريغوريف عام ١٨٧٦ بحثا عنها فى المؤتمر الدولى الثالث عشر للمستشرقين المنعقد فى بطرسبرج ·

ودرسها روزن ، وماركفارت (١٩٠٣) ، ووضح خط رحـلة أبى دلف الى الصين ·

وكذلك فعـل بارتولد ، ومينورسكى (١٩٦٧) الذى قال عنها : ان فى الرحلة سلسلة مي الوقائع بعضها حقيقى ، وبعضها من نسـج الخيال ، وفى وصف أبى دلف لرحلاته ـ كما يقول مينورسكى ـ خلط وتعقيد شـديدان ، وان كان يعـد خلاصة للمعـارف الجغرافية آنذاك

---

(٦) ٨/٥ ٤٠ و ٤٠٩ معجم البلـدان ·

عن الصين والهند . ويشكك أخيرا هذا المستشرق فى حدوث رحلات أبى دلف .

ويرد عليه كراتشوفسكى فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى »(٧) مؤكدا أن رحلة أبى دلف الى الصين واقعة حقيقية لا شك فيها ، ويؤكد حدوثها روايات ابن النديم فى كتابه « الفهرست » عن أبى دلف(٨) . بل ان الرجل لم يترك ادنى شك لدى خبير بالموضوع مثل فيران (١٩١٣) .

ويؤكد رور صوير (١٩٣٩) أنه لا أساس للقول بأن الرحلة من نسج الخيال ، اذ أن بعض التفاصيل المتعلقة بهـا وجدت دلائل على صحتها فى سفارات متأخرة ، مثل سفارة شاهرخ ، كما أكد الباحثون دقة ملاحظات أبى دلف فى محيط الظواهر الطبيعية والتاريخية ، وفى وصفه لمشاهد عامة .

وفى هذه الرحلة يذكر ابو دلف الأوانى الصينية وأنها كانت مفضلة فى الأسواق ، وأن الخزف الصينى كان يقلد فى بعض البلدان ، ولا سيما فى ملبار وايران .

٣ ـ وفيما بين عام ٣٣١ ـ ٣٤١ هـ : ٩٤٢ ـ ٩٥٢ م ، زار أبو دلف بتشجيع من الصاحب الوزير على ما أظن وكما أشار الى ذلك الثعالبى فى « اليتيمة » ، أماكن مختلفة فى ايران وآسيا الوسطى فى حماية الوالى على سيستان من قبل أبى محمد بن أحمد (٣٣١ ـ ٣٥٢ : ٩٤٢ ـ ٩٦٣ م) وألف أبو دلف فى وصف هذه الرحلة ومشاهده فيها عبر أرمينية وأذربيجان وايران رسالة سماها « الرسالة الثانية » ، ويقول فى مقدمتها على طريقته نفسها فى مقدمة الرسالة الأولى :

« جردت لكما ، يا من انا عبد كما ، أدام الله لكما العز والتأييد ،

---

(٧) ص ١٨٩ من الكتاب .

(٨) ٣٤٦ و ٣٤٧ الفهرست ٣٥٠ و ٣٥١ الفهرست أيضا .

والقدرة والتمكين ، جملة من سفرى من بخارى الى الصين ، ورجوعى منها على الهند ، وذكرت بعض أعاجيب ما دخلته من بلدانها ، وسلكته من قبائلها ، ورأيت الآن تجريد رسالة ثانية ، تجمع عامة ما شاهدته وتحيط بأكثر ما عاينته ، لينتفع به المعتبرون ، ويتدرب به أولو العزة والطمأنينة ، ويثقف به رأى من عجز عن سياحة الأرض »(٩) ٠

واللذان يوجه هنا أبو دلف اليهما هذه الرسالة هما اللذان وجه اليهما الرسالة الأولى ، كما يبدو من هذه المقدمة الموجزة الصغيرة ٠

ولهذه الرسالة الثانية فى وصف رحلته فى أواسط آسيا أهمية كبيرة ، كما سنذكر بعد قليل ٠

وتبدأ وقائع هذه الرحلة التى تسجلها الرسالة الثانية من مدينة « الشمز » فى جنوبى أذربيجان ، وتمتد لتشمل أماكن كثيرة فى خراسان وايران والقوقاز وأرمينية ، ٠ ومن هنا كانت الرسالة الثانية من المصادر العربية القيمة ذات الفائدة الكبيرة للتاريخ العام ، والتاريخ الجغرافى والجيولوجى والأثرى لهذه البلاد ، وهى الى جانب هذا تحتوى على كثير من الأشياء الطريفة ، والمشاهدات العجيبة ، والنوادر الغريبة ، وبعضها مما يحير العقول(١٠) ٠

وتتميز هذه الرسالة بتركيز شديد ، ودقة متناهية ، وموضوعية غريبة ، كما تتميز بمادتها العلمية القيمة التى تضعها فى عداد المصادر الأولى للتاريخ العام والجغرافى لآسيا الوسطى ٠ وتحتوى على معلومات جليلة متعلقة بالمصادر النفطية فى باكو ، وبالمعادن المفيدة

---

(٩) ٢٩ و ٣٠ الرسالة الثانية طبع القاهرة نشر عالم الكتب - مطبعة مخيمر وقد وردت كلمة ثانية : فى الرسالة (ص ٢٩) محرفة الى كلمة « شافية » ، وهو خطأ ٠

(١٠) ص ٣ مقدمة الرسالة الثانية ٠

فى ارمينية ، وأبو دلف أحد الرحـــالة الأوائل الذين تحدثوا عـــن استخراج النفط فى باكو ، وما أروع ما كتبه عن معـدنيات وطواحـين تفليس(١١) ، ولا يستغنى عن دراستها مؤرخ أو جغرافى أو جيولوجى ، وفيها يذكر أبو دلف أكثر من أربعين موضعا يوجـد فيها المعـادن ، وأماكن أخرى فيها آثار للفرس أو للسامانيين ٠

ولقـد حقق مينورسكى هـذه الرسـالة ، وطبعت بمصر عام ١٩٥٠ م فى ٣١ صفحة النص العربى + ١٣٦ صفحة الترجمة الانجليزية والدراسـة ٠

ثم طبعت فى موسكو بتحقيق خالدوف وبلغاركوف عام ١٩٦٦ م ٠

وطبع تحقيقهما فى القاهرة بترجمة محمد منير موسى عام ١٩٦٦م٠

وفى عام ١٩٢٤ عثر فى مدينـة مشهد الايرانية على مخطوطة تشتمل على أربع رسـائل :

١ - رسـالة أبى دلف ٠
٢ - رسـالة ابن فضـلان ٠
٣ - رسـالة فى أخبـار البلـدان لابن الفقيه ٠
٤ - رسـالة أخـرى ٠

وأصبح لهـذه المخطـوطة أهميـة كبيرة فى تراث أبى دلف ، وفى تاريخ البحث العلمى الجغرافى القـديم ٠

ورسـالة أبى دلف فى مخطوطة مشهد تشتمل على رسالتيه الأولى والثانية وقـد ذكرتا على أنهما كتـاب واحـد ٠

ويبـدو أن هـذا الكتاب كان قـديما يسمى عجائب البلـدان كما نقلنا عن القزوينى وياقـوت ، وذكرها بهـذا الاسم كذلك بروكلمان ٠

---

(١١) ص ٢٢ مقـدمة الرسـالة الثانية ٠

٤ - وابو دلـف فى رحـلاته يعنى عناية شـديدة بذكر أماكن المعادن والآثار ، وطالما يقف أمام الأشـياء موقف العـالم المدقـق الحكيم المجرب الذى يحاول فهم الأشياء والوصول الى دخائلها .

ومن أهمية البحث الجغرافى الذى قـام به أبو دلف انه عرض لمدينة الشيز ، وهى بين المراغـة وزنجان وشهرزور وتوجـد الآن فى وادى ساركزتز فى الاتحاد السوفيتى .. ومن وصف أبى دلف لهـذه المدينة : أمكن للعلمـاء الروس تحـديدها واستخراج آثار تخت سليمان من تحت طبقاتها الأرضية . ومن مثل تحقيقاته العلمية ما ذكره فى صعوده الى قمـة جبل دبناوند فى فارس ودخوله كهفا فى هـذا الجبل ورصـده لظاهرة وجـود نار مشتعلة فيه(١٢) .

ويذكر أبو دلف انه سار فى مائرة خـوارزم ، ورأى بهـا آثارا كثيرة لجماعة من ملوك العرب والعجم ، ويتحـدث ، عن انخساف بعض قراها تحت الأرض بنحـو مائة قامة .

ويشكك بعض الباحثين فى وصول أبى دلف الى خوارزم بدعـوى أن معلوماته عن هـذه البـلاد عامة ضـحلة ، ولكـن ذلك لا يقف حجـة لهـذا الشـك .

وبعـد فقـد كان أبو دلـف ابن ينبـع ، من أعظـم الرحالين الجغرافيين المسلمين ، الذيد ظهروا فى القرن الرابع الهجرى . وقـد نالت رسالتـاه أعظم اهتمام فى عالم الاستشراق ، وأولاه المستشرقون كثيرا من العناية والدراسة والبحث .

وعمل أبى دلف فى ميدان الرحـلة متعـدد : فهـو يظهر لنـا فى صورة الرحالة الوصاف للجغرافية الاقليمية القـديمة .

كما يظهر فى صورة الجغرافى المتمـكن ، والأثرى المنقـب ،

---

(١٢) الرسـالة الثانية ص ٨٧ .

والجيولوجى الدقيق العالم بطبقـات الأرض وصخورها مما يرفـع من منزلته بين العلمـاء ٠

ويظهر لنـا كذلك فى صورة الطبيب الذى يعـلم أماكن المصحات الطبيعية التى تلائم طبيعة المرضى والتى تساعدهم على الشفاء ٠

ويصـدق عليه ما قالـه المسعودى عن نفسه : « قطعنا بلاد السند والزنج ، والصين والرانج ، فتـارة بأقصى خراسـان ، وتارة بأوسـط أرمينية وأذربيجان »(١٣) ٠

وقـد كتب الأستاذ يحيى ساعاتى مقالا فى مجلة المنهل السعودية آسيا الوسطى جاء فيه ما يلى :

للعرب فى آسية الوسطى تاريخ طويل ، يبدأ بسنة ٤٦ هجرية عندما وصـل الى مشارف تلك المنطقة الربيع بن الحارث ، ثم كانت حملة عبيد الله بن زياد سـنة ٥٠ للجهرة الذى افتتح بعض مدنها ومن بينها مدينة بيكند ، جاء بعـد ذلك سعيد بن عثمان بن عفان على رأس حملة توسعت فى فتوحاتها ، وأخيرا كانت حملة قتيبة بن مسلم الباهلى سنة ٨٦ هجرية التى توغلت فى المنطقة حتى بلغت حـدود الصين ، ونزل الجنـد العرب فى مدن آسية الوسطى مثل بخارى وسمرقند وفرغانة٠ وكان للعرب فى مدينة بخارى أحياء خاصة بهم « فمن حيث تدخل من باب العطارين الى باب نون لربيعة ومضر ، والباقى لأهـل اليمن ٠٠ فاذا عبرت باب بنى سـعد فهناك باب بنى أسـد »(١٤) ٠ ومـع الزمن توالت هجرات العرب الى آسية الوسطى كما أنها كانت ملجـأ للفارين ٠ ولذوى المطـامع السياسية منهم ٠٠ وقـد اندمج معظم أولئـك العـرب فى أهـل البلاد الأصليين ولكنهم ظلوا يحتفظون بأنسابهم ، وظل أهالى تلك المناطق يكنون لهم احتراما وتقـديرا ٠ وكان العرب الذين ينتسبون الى بعض الصحابة ، وخاصة الى أبى بكر وعمر وعلى من غير فاطمة

---

(١٣) مقـدمة الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودى (ت ٣٤٦ هـ) ٠

(١٤) النرشـــخى ٨٠ و ٨٢ ٠

يطلق عليهم لقب « خواجـــه »(١٥) اما الذين ينتسبون الى الحسين بن على فكان يطلق عليهم « خواجكان جويبارى »(١٦) أى الاشراف ٠

وقـد حفـظ لنـــا التـاريخ أسـماء بعض مشـاهير عرب آسـية الوسطى ، والذين قامـــوا بدور بارز فى احـداث المنطقـــة ٠٠ منهم « الخـواجة احمد بن ابراهيم اليسوى » المتوفى سنة ٥٦٢ هجـــرية ، وهـــو من احفاد محمد ابن على بن ابى طالب(١٧) ويعـد من رواد الأدب التركى ومن اشهر المتصـوفة الأتراك ، وهـو من الذين نشروا الاسـلام بين بدو الأتراك فى سهوب تركستان ، ويعـد ديوان « حكمت المنسوب اليه من أكثر الكتب تداولا بين أبناء المنطقة وقـد ظـل البدو فى سهوب آسيا الوسطى يعظمون « اليسون » ومثلهم الأزبك والغرغيز(١٨) ٠

ومنهم أحمد بن العباس بن الحسن بن عياض ، وهـــو من نســـل سـعد بن عبـادة الأنصارى الخزرجى ٠ ويعـد من كبار فقهـآء الحنفية، وكان يبطن سمرقند ، وقـد استشهد فى معركة مـع كفـــار الترك فى شمال تركستان(١٩) ٠

ومنهم ايضا ناصر الدين عبيد الله بن محمود بن شـــهاب الدين الشاشى السمرقندى المعروف بـ « خواجـه احرار » وهـــو أحـد رؤساء الطريقة النقشبندية ، وقـام بدور كبير فى الحياة السياسية على عمـد التيموريين ، وهـــو من احفاد عمر بن الخطاب(٢٠) ٠

وقـد اندمج أبناء الذين سـبق ذكـــرهم وامثالهم من العرب فى الأتراك أو الفرس وهم يعـد هناك ما يربطهم بالعرب غير وثائق أنسابهم ٠

---

(١٥) دائرة المعـارف الاسلامية ٤٦٨/٨ ٠

(١٦) هامش تاريخ بخارى للنرشـخى ٠

(١٧) لســـترنج ٥٢٩ ٠

(١٨) فامبرى ، ٢٩٨ ٠

(١٩) اللكنــــوى ، ١٨ ٠

(٢٠) المصـدر السـابق ، ١٢٠ ٠

وفى العصر الحـديث كانت مفاجأة لكثير من الباحثين عندما توصل بعض المستشرقين الى وجـود بقايا من العرب يقيمـون حـول بخارى وفرغانة ، وقشقاريا يكلمون بلهجات عربية تمت بصلة قربى الى لهجـة العراق ، وشبه الجزيرة العربية ، وقـد قـدر « أرمنيوس فاجـدى » عـددهم بـ ٦٠ ألف عربى(٢١) وفى الاحصائيات السوفياتية الرسمية لعام ١٩٢٦ كان عـددهم ٢٨ر٩٨٧ ، وفى احصائيات عام ١٩٣٩ كان عـددهم ٢١ر٧٩٣(٢٢) ، وفى الاحصاء الرسمى لسنة ١٩٥٩ الميلادية انخفض عـددهم الى ٩٠٠ (٢٣) ، وجعههم أحمـد طعلت ٢٠ ألف عربى يعيشون فى أزبكستان(٢٤) ٠

وقـد اختلف الباحثون فى تحـديد التاريخ الذى جاء فيه هؤلاء العرب الى آسية الوسطى فذهب بعضهم الى أنهم جاءوا مـع تيمور لنك ، وقال آخرون : أنهم من بقـايا الفاتحين العرب الذين جاءوا مـع قتيبة ابن مسلم الباهلى ٠ ويذكر نجـدة صفوة : « ان المعلومات التى استقيت ننيجة التحقيقات مـع سكان المنطقة تحمل على الظن بأن القبائل العربية الموجـودة فى آسية الوسطى قـد انتقلت اليها من أفغانستان فى موجات متعـددة قبل فترة تتراوح بين مائتين وثلاثمائة سنة(٢٥) ٠

وقـد أقام العرب فى بداية الأمر حـول بخارى ثم تفرقـوا منها فنزلوا حـول سمرقند ، وفرغانة وقاشاوريا ، وهم يقطنون اليـوم فى قرى منها « عـرب ، وعـربخانة ، وغـربيهيار ، وغـرب قشـلاق ، وعـرب مـزار »(٢٦) ٠

ولعرب آسية الوسطى لهجـة عربية خاصة بهم تختلف عن اللجهات العربية فى تركيب الجمل ، وفى دخـول كلمات أعجمية كثيرة فيها ، من

---

(٢١) صفوة ، العرب فى الاتحاد السوفييتى ، العربى ، ١٢٤ ٠
(٢٢) الفـكر العـربى ع ٨ ٠
(٢٣) بيهم ، العرب فى آسيا الوسطى ، مجلة المعرفة ، ٥٥ ٠
(٢٤) المسـلمون فى روسـيا ، ٨١ ٠
(٢٥) العرب فى الاتحـاد السوفيتى ، العربى ، ١٢٤ ٠
(٢٦) المصدر السـابق ٠

نماذجها : « كان ما كان ، قد حكيما كان • وقد ولد كان عنده(٢٧) •

ويذكر الباحثون ان لهجة عرب بخارى تختلف كلية عن لهجة قاشقاوريا بحيث لا يستطيع العربى الذى يقيم حول بخارى التخاطب مع العربى الذى يقيم حول قاشقاوريا والمؤسف فى الأمر أن هذه اللهجات دونت بالحروف اللاتينية •• وذلك مما يباعد بينها وبين اللهجات العربية ، وبذلك تصبح لغة مستقلة تنتمى باصلها الى العربية مثلها فى ذلك مثل اللغة او ـ الطية المتفرعة عن العربية •

* * *

وقد اهتم المستشرقون بهؤلاء العرب ويظهر هذا الاهتمام فى الدراسات العديدة التى وضعوها والتى منها :

ـ العرب فى الاتحاد السوفياتى لتسرتلى •

ـ اللهجة العربية فى الشرق السوفيتى ليوشمانوف •

ـ الخطوط الرئيسية لتطور الأدب العربى فى آسية الوسطى لبيليايف •

ـ تاريخ عرب آسية الوسطى لفولين(٢٨) •

ـ لهجات العرب فى آسية الوسطى لفينيكوف •

ـ العرب فى آسية الوسطى لفينيكوف •

ـ عرب آسية الوسطى لفينيكوف •

ـ المرأة وحفظ التقاليد الثقافية عند عرب آسية الوسطى لفينيكوف •

---

(٢٧) الغول ، العربى ، ٩ •

(٢٨) العرب فى الاتحاد السوفيتى ، العربى ، ١٢٤ •

_ تقاليد عرب بخـارى لفينيكوف ٠

_ نماذج من تقاليد عرب بخـاري لفينيكوف ٠

_ نقليات عرب آسـية الوسطى لفينيكوف(٢٩) ٠

_ الثقافة العربية فى آسـية الوسطى لساله ٠

_ مواد لدراسة اللهجات العربية في آسية الوسطى لتسرتلى ٠

_ وصف لغـة عرب آسـية الوسطى لتسرتلى ٠

_ اللهجات العربية وقواعـدها فى اواسط آسـية مع أمثلة عليها لتسرتلى ، وهـو يتكون من اربعة مجلـدات ٠

الأول : نصوص فى لغـة عرب بخارى وترجمتها ٠

الثانى : نصوص فى لغـة كشغدار وترجمتها ٠

الثالث : قامـوس للمجلـدين ٠

الرابع : البحث فى لغـة عرب آسـية الوسطى(٣٠) ٠

والمؤسف ان جميع هـذه الدراسات كتبت بلغـــات اجنبية ، ولم يترجم منها اى شىء الى العربية ٠

أما الدراســات التى كتبهـا البأحثـون العرب فهى قليلة من بينها المقـالات التاليـة :

_ عرب عن العرب منقطعون لمحمود الغـول نشره بمجلة العـربى سـنة ١٩٥٩ م ٠

---

(٢٩) عفيـــفى ، ٩٦٤/٣ ٠

(٣٠) المصـدر السـابق ٩٦٥/٣ ، ٩٦٦ ٠

- العرب فى آسـية الوسطى لمحمد جميل بيهم نشره بمجلة المعرفة سـنة ١٩٦٦ م ٠

- العرب فى الاتحاد السوفيتى لنجـدة فتحى صفوة نشر بمجـلة العـربى سـنة ١٩٥٩ م ٠

كما ترجمت محاضرة تسرتلى التى القـاها فى النـدوة اللبنانية ببيروت سنة ١٩٥٦ م ونشرت بمجـلة المجمـع العلمى العـربى بدمشق سـنة ١٩٥٦ م ٠

مراجع هـذا الفصـل

ـ بيهم ، محمـد جميل :
العرب فى آسيا الوسطى · المعرفة ع ٥٥ ، س ٥ ، ١٩٦٦ م ·

ـ دائرة المعـارف الاسلامية ·

ـ طلعـت ، أحمـد :
المسلمون فى روسية · بيروت ، النشر للجامعـة ، ١٩٥٨ م ·

ـ صـفوة ، نجـده فتحى :
العرب فى الاتحاد السوفيتى ، العربى ، ع ١٢٤ ، ١٩٦٩ م ·

ـ العقيـقى ، نجيب ·
المستشرقون ، القـاهرة ، دار المعـارف ، ١٩٦٥ م ·

ـ الغـول ، محمـود :
عرب عن العرب منقطعون · العربى ع ٩ ، ١٩٥٩ م ·

ـ فاجـرى ، أرمينيـوس :
تاريخ بخارى تعريب أحمد محمود الساداتى · القاهرة ، المؤسسة المصرية ، ١٩٦٥ م ·

ـ لسـترنج ، كـى :
بلدان الخلافة الشرقية تعريب بشير فرنسيس وكوركيس عـواد ، بغـداد ، المجمع العلمى ١٩٥٤ م ·

ـ اللكنـوى ، عبـد الحى :
الفوائد البهية فى تراجم الحنفية مع التعليقات السنية · دهلى ، ندوة المعـارف ·

ـ المفـكر العـربى · ع ٨ ، س ١ ، ١٩٦٩ م ·

ـ النرشـخى ، أبو بكر محمـد بن جعفر :

تاريخ بخارى تعريب أمين بدوى ، ونصر الله الطرازى · القاهرة ، دار المعـارف ١٩٦٥ م ·

الباب الرابع

أبو دلف الأديب

الفصل الأول

أبو دلف كاتبا

أمامنا نصوص نثرية كثيرة لأبى دلف ، منها رسالتاه فى وصف رحلاته عبر الصين والهند وآسيا الوسطى ، ومنها رسائل نثرية صغيرة ٠

وهذه النصوص تظهر لنا بوضوح شخصية أبى دلف الأدبية ٠

عنه كاتب عميق المعانى ، كثير التجربة ، عظيم الخبرة ، دقيق الأفكار ٠

وهو الى جانب ذلك سمح الأسلوب ، عذب اللفظ ، واضح الصياغة ، وضوح معانيه ، ليس فى أدائه تعقيد ، أو اغراب أو تكلف أو حوشية ، أو معاظلة ٠

أسلوبه اقرب الأساليب الى سماحة أسلوب المطبوعين ، ووضوح أساليب المعاصرين ، كأنه أسلوب صحفى معاصر ، مطبوع على البيان الجيد ، متمكن من اللغة والبلاغة ٠

وقد كان أبو دلف يعيش فى عصر المطبوعين على البيان ، وفى ذروتهم ابن العميد ، والصاحب ، والخوارزمى والبديع ، والصابى ، وابو حيان ، ،غيرهم من أعلام البلاغة والكتابة والنثر الفنى ٠

أبو دلف يتخذ من الرسالة مادة لعمله العلمى ، ويبعد عن قيود الصناعة البديعية وزخارفها ووشيها ، مع التركيز الشديد فى رسائله ، ومع الوصف الدقيق للأشياء التى يصفها ٠

ومقدمتا رسالتيه تمتازان بأسلوبهما السنى السهل ، ومع ذلك فان سعة ثقافة الرجل فرضت نفسها على كتابته ، فليس هناك كلمة

غريبة أو حرف قد جىء بها أو به لغير ما داع يتطلبه المعنى والغرض المسوق له الكلام ٠

وأبو دلف قلما يعنى بالحديث عن نفسه وتجاربه فى كتاباته ، فهو كاتب موضوعى أكثر منه كاتبا وصفيا ٠

وهو جدير باهتمامنا ، وعنايتنا وتقديرنا لعلمه وتعدد ثقافته ، وسعة جوانب شخصيته ٠

ويبدو أن اتصاله الوثيق بالساسانية والساسانيين ، قد قرب أسلوبه من واقع الحياة ، ومن حاجة العصر الى الدراسات الطبيعية والطبية والعلاجية والأثرية والجيولوجية ، وجعل جانب العلم أغلب عليه ، وأظهر على أدبه من جانب الخيال والعاطفة ٠

ومن العسير أن نفترض أنه لم يحى حياة الساسانيين ، فأدبه قطعة من صميم حياتهم ، وليس فيه أثر للتقليد أو الصنعة أو الزيف ، وصلة أبى دلف الوثيقة بهذا الوسط الاجتماعى المتميز جعله نموذجا حيا للساسانى الخالص(١) ٠ وجعل من أدبه وتجاربه صورة واضحة متكاملة نظر اليها مثل البديع الهمذانى فى اكبار واجلال وتقدير ، واتخذها نموذجا فنيا فى عمله الأدبى الجديد فى فن المقامة ، مما سنحيط به فى شىء من التفصيل بعد قليل ٠

---

(١) حب أبى دلف للفن وظرفه جعله يحترف الأدب الساسانى احترافا مبدعا ، حتى لم يبق فرق بين الأصل والصورة ، والطبع والصنعة ، وكذلك كنا نرى فى عصرنا أناسا يرتدون ـ من اجل الظرف والفكاهة ـ رداء أشعب فى جشعه وطمعه ، وهم أعز نفسا ، وأكرم طبعا ٠ وعلى أية حال فهناك فرق بين النموذج والأصل أو الحقيقة ، ونحن مضطرون لأن نقول هنا ما قلناه عن ساسانيته لأن أبا دلف صور نفسه فى قصيدته الساسانية بهذه الصورة الساسانية الخالصة ، واذا علمنا أن أبا دلف عاش فى قصور الملوك ونال جوائرهم ، وكانت له ألف حرفة ـ كما يقولون ـ أدركنا أنه لم يكن ساسانى التكسب ، بل ساسانى الفن وحده ٠

الفصــل الثــانى

أبــو دلــف .. شــاعرا

- ١ -

عاش أبو دلف عالم ينبع وأديبها وشاعرها فى عصر ازدهار الشعر ونهضته فى القرن الرابع الهجرى ، عصر المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ) ، والشريف الرضى (٣٥٩-٤٠٦هـ) ، وأبى فراس الحمدانى (٣٢٠-٣٥٧هـ) والوفــاء (٣٦٦ - ٤٠١ هـ) ، والســلامى (٣٩٤ هـ) ، وكشــاجم (٣٥٠ هـ) ، والخالــديين ، وابن الحجــاج (ت ٣٩١) ، والوأواء الدمشقى (ت ٣٩٠ هـ) ، والصنوبرى (٣٣٤ هـ) ، وقابوس بن وشمكير (٤٠٣ هـ/١٠١٢ م) وابن ســـكرة (٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م) ، والبستى (٣٣٠ - ٤٠٠ هـ) ، وسواهم من أعلام الشعر العباسى .

وشــهر - أول ما شــهر ابن ينبــع - بالشــعر ، فقصـد به ملوك السامانيين ووزراءهم يمـدحهم ، وينشد فيهم القصائد الطوال ، ثم ذهب الى البويهيين ، ملوكهم ووزرائهم ، فمدحهم بقصائده الجياد .

ومن الأسف أن شـعر أبى دلف أو ديوانه يعـد مفقودا حتى اليوم، ولا نعرف لــه الا القليل جـدا من شعره ، ممــا ســجله الثعالبى فى « اليتيمـة » ، ومن أهم ما حفظه الثعالبى لنـا من هـذا التراث الشعرى قصيدة أبى دلف - أو رائيته الساسانية ، التى سوف نتحـدث عنهـا بعـد قليـل .

- ٢ -

واشهر اغراض شـعره : المـدح - والهجـاء - والفكاهة ، وأهم أغراضه الشعرية على الاطـلاق هـو شـعره الساسانى الذى سنتعرض لــه .

ولنبدأ بذكر مقتطفات مما بقى من شعره ، لنتعرف الى شاعريته ، ونقف على مدى اصالته ٠

١ - كان أبو عيسى بن المنجم الطبيب من جلساء الصاحب ، وكان الصاحب قد أهداه دابة فارهة ، فكان يركبها كلما قصد مجالس الوزير ، وهلكت الدابة أو قل نفقت ، فطلب الصاحب من شعرائه أن يكتب كل منهم قصيدة فى رثاء البرذون الراحل ، وينشدها فى مجلسه ، ويقدمها الى أبى عيسى ، فاجتمع الشعراء ، ثلاثة عشر شاعرا ، فى مجلس حافل من مجالس الصاحب ، والقى كل منهم قصيدة(١) ٠٠ وقام شاعرنا أبو دلف فأنشد أرجوزة طويلة فى رثاء الفقيد ، ضمنها أحر عواطفه ، فماذا قال الشاعر فى هذا الموضوع ؟ استمعوا الى أبى دلف ينشد(٢) :

دهر على أبنائه وثاب
يا لك دهرا كله عقاب
اصبح لا يردعه العتاب
واها لشاء ما له ايـاب
لكل قلب بعده اكتئاب
ذو نسب تحسده الأنساب
قد كملت فى طبعه الآداب
كأنما غرته شهاب
كأنما لبـاته محراب
لا خبر منك ولا كتاب
تناوبتك للردى أنياب

(١) ٣ : ٢١٣ - ٢٣٦ يتيمة الدهر ٠
(٢) ٣ : ٢٢٣ - ٢٢٥ المرجع ٠

تجـزع مـين أمثـالها الأحبـاب

وكنت لــو طالت بك الأوصاب

يخـف فـى مصرعــك المصـاب

وأنـتِ فـرد مـا لـه أتـراب

قـل لأبى عيسى : وما الاسهاب

بنافــع : تـم لـك الثـواب

فاسـكن فهـذا الصاحب الوهـاب

فى جـوده وفضـــله منـاب

٢ ـ ويقــول أبو دلف أيضا يصف ترفيه وشجاعته(٣) :

انى امـــرؤ كسروى الفعـــال
أصيف الجبـال وأشتو العراق

والبـــس للحــرب أثوابهـــا
واعتنـــق الدارعـين اعتناقا

يقول ابن الفقيه : اختـار أبو دلف بفضل رأيه أن يصيف الجبال ، ليسلم من سمائم العـراق وذبابة وسـخونة مـائه وهـوائه ، ويشتو بالعراق ليسلم من زمهرير الجبال وكثرة رياحها ووحولها ٠

٣ ـ ولـما طوت الأحـداث حياة أبى دلف المترفة ، فأحالته فقيرا بعـد غنى ، قال(٤) :

ألم ترنى حـين حـال الزمـان
أصيف العراق وأشـتو الجبالا

---

(٣) ٢٤١ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ـ طبعة أبريل ١٣٠٢ هـ ٠

(٤) ٢٤١ المرجـع السـابق ٠

سموم المصيف وبرد الشتاء
حنانيك حالا أزالتك حالا

فصبرا على حدث النائبات
فأبى الحوادث الا انتقالا

٤ ـ ووقف أبو دلف أمام بعض آثار تدمر فى الشام ، فقال :

ما صورتان بتدمر قد راعتا
أهل الحجى وجماعة العشاق

غبرا على طول الزمان ومره
لم يسأما من ألفة وعناق

فليرمين الدهر من نكباته
شخصيهما منه بسهم فراق

وليبلينهما الزمان بكره
وتعاقب الاظلام والاشراق

كى يعلم العلماء أن لا دائم
غير الاله الواحد الخلاق

٥ ـ ولأبى دلف حكم مأثورة مشهورة ومنها أبياته السائرة(٥) :

هى المقادير تجرى فى أزمتها
فاصبر فليس لها صبر على حال

---

(٥) كتاب التمثيل والمحاسرة للثعالبى ، ومن الطريف أن هذه الأبيات لشهرتها رويت بروايات مختلفة ، ونسبت لكثير من الشعراء، منهم : الشافعى ، والواثق العباسى ، واسحاق الموصلى ٠

دع المقـادير تجرى فى أعنتهـا
ولا تبيتن الا خـالى البـال

ما بين طرفـة عـين وانتبـاهتها
يغـير الله من حـال الى حـال

وليس بين أيدينا نصوص من حكمه لأن شـعره مفقود الا النماذج القليلة التى رواها الثعـالبى ٠

٦ ـ ويذكر الثعالبى أن الصاحب الوزير بنى قصرا بأصبهان ، وانتقـل اليه ، واقترح على شعرائه أن يقولوا فيـه شعرا ٠ وفى يوم حافـل اجتمع شـعراؤه الثلاثة عشر فى مجلس الصاحب ، ومن بينهم شاعرنا أبو دلف(٦) ، فأنشد كل منهم قصـيدة طـويلة فى مدح الصاحب ووصف القصر ، وقـد ذكر الثعالبى هـذه القصائد ومن بينها قصيدة أبى دلف ٠ ومطلع قصـيدة أبى دلف هـو :

رأينـا طلعـة الـدار شـموسا مـع أقمـار

ولـى مسـألة بعـد فعـاجلنى باخبـار

بنيت الـدار فى دنيـا ك ، أم دنيـاك فى الـدار ؟

٧ ـ ولننتقل الى قصيدة أبى دلف الساسانية المشهورة العجيبة ٠٠ وقبل أن نذكرها نذكر مدلول « الشعر الساسانى » ٠

ـ ٣ ـ

الشعر الساسانى لـه بذور قـديمة فى شـعر الصعـاليك ، وفى مزاح أشعب وطبقته ، وفى أدب الجاحظ فى بعض كتاباته ٠

---

(٦) ٣ : ٢٠٢ ـ ٢١٣ اليتيمـة ٠ ٠ [illegible]

وقد عم الفقر البلاد الاسلامية فى العصر البويهى ، كما ذكرنا آنفا ، وما أقسى ما قاله أبو حيان فى كتابه « الامتاع والمؤانسة »(٧) : القوت لم يكن اليه سبيل الا باخلاق المروءة ، وتجرع الأسى ، ومقاساة الحرقة ، ولذع الحرمان ، والصبر على الوان والوان ، أو ما يقوله ابن لنكك البصرى :

جار الزمان علينا فى تصرفه
وأى دهر على الأحرار لم يجر ؟

وكان كثير من الساخطين والمشعوذين والمحتالين والسائلين الجواة يجوبون البلاد ، ويطوفون بالأقاليم ، ويتفننون فى اختراع الحيل للحصول على المال ، ويظهرون احيانا أن صدقا وان كذبا انهم مجاهدون احيانا أو من أبناء السبيل ، أو ممن نهبت أموالهم فى الطريق ، أو مرضى ، او غير ذلك ، فاطلق على هؤلاء بنو ساسان ، أو الساسانيون(٨) وكان جامع الاهواز مأوى الكثير منهم(٩) .

وظهر الشعراء والأدباء الذين يقولون شعرهم وأدبهم فى الاستجداء ، وفى الاحتيال على أخذ المال من أى طريق ، وقيل لجماعة هؤلاء الشعراء والأدباء أيضا : ساسانيون ، وقيل لأدبهم وشعرهم : ادب وشعر ساسانى . وكم هناك من فرق بين المدح وبين الاستجداء والاحتيال على الناس ؟

وللساسانيين لغة واصطلاحات خاصة لا يعرفها الا من كان منهم ، وتعرف هذه اللغة باسم « مناكاة بنى ساسان » ، وكان الصاحب يحفظ منها الكثير حفظا عجيبا ، كما يقول الثعالبى فى اليتيمة(١٠) ، وكان يعجبه من أبى دلف وفور حظه من هذه اللغة فى شعره ،

---

(٧) ٢ : ١٤٢ الكتاب المذكور .
(٨) ٤٦/١١ و ٤٧ دائرة المعارف الاسلامية .
(٩) ٧ أحسن القاسيم للمقدسى .
(١٠) ١٧٦/٣ التيتمة .

وبخاصة فى قصيدته الساسانية الطويلة ، التى كتبها وقدمها(١١) الى الصاحب ، ووصف فيها حيل بنى ساسان وأساليب حياتهم ، وقد اختار منها الثعالبى فى اليتيمة نحوا من مائتى بيت ٠

هذا هو معنى الشعر الساسانى باجمال ، فمن هو ساسان الذى نسب اليه هذا الشعر ؟

قيل : هو أمير من الأسرة الساسانية(١٢) الفارسية المالكة ، حزن لما تولت أخته الملك وحرم هو منه ، فاشترى غنما ، وجعل يرعاها ، ويعير بأنه راعى غنم ، فنسب اليه كل من احترف الكدية ٠

وقيل(١٣) : أن الساسانيين كانوا شراذم الأمراء من بنى ساسان ، جاء الاسلام فذلوا بعد عز ، وافتقروا بعد غنى ، ورحلوا من مكان الى مكان ، فصارت نسبتهم الى الساسانيين نسبة عار وذل ، بعد أن كانت نسبة شرف ومجد ٠

وقيل أن ساسان كان رجلا من عامة الناس ، مهرا فى الحيلة والاستجداء ، فنسب اليه هؤلاء ٠

وكان من الساسانيين شعراء صقل الحرمان مواهبهم ، وأنضج الالم عبقريتهم ، ومنهم شاعرنا أبو دلف ، وشاعر آخر ضاهاه فى رفعة المنزلة فى الأدب الساسانى ، وهو الأحنف العكبرى ، الذى قيل عنه : أنه آدب بنى ساسان فى بغداد ، وقال الثعالبى عنه : هو

(١١) ٢١٨ « الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى » ـ طبعة عام ١٩٤٩ م٠

(١٢) أسرة فارسية حكمت ايران ، أولهم أردشير (٢٢٦ ـ ٢٤١ م) ، وآخرهم يزدجرد الثالث (٦٣٢ ـ ٦٥١ م) الذى سقطت الامبرطورية الفارسية فى عهده فى أيدى المسلمين (راجع ١١/٤٧ ـ ٥٥ دائرة المعارف الاسلامية و ١ : ١٤٢ « ظهر الاسلام لأحمد أمين » ٠

(١٣) هو رأى محمد عبده فى شرحه لمقامات البديع ـ ص ٩٧ ٠

فرد بنى ساسان اليـوم بمدينة السلام(١٤) ٠

وقـد أكثر العكبرى من تصـوير بؤسه وحرمانه ؛ فيقول :

العنكبوت بنت بيتـا على وهـن
تأوى اليه وما لى مثلها وطن

ويقول أيضا :
عشت فى ذلـة وقلـة مـال
واغـتراب فـى معشـر أنـذال

بالأمـانى اقـول لا بالمعـانى
فغـذائى حـلاوة الآمـال(١٥)

---

(١٤) ١١٧/٣ اليتيمة ـ ٢٢٤ بديع الزمان للشكعة ٠

ولقـد ذكر الجاحظ ـ فى « المحاسن والأضـداد » وفى « البخـلاء » ص ٣٦ ـ الكـدية والمكـدين ٠٠ وفى المحاسن والمساوىء للبيهقى نصـوص عن الجاحظ فى ذلك (٦٢٢ ـ ٦٢٤) المحاسن للبيهقى) ٠

ويذكر بديع الزمان فى مقاماته اللصـوص وحيلهم ـ راجع المقـامة الرصافية ـ كما يذكر الكـدية كذلك ، وفى مقامته الساسانية ، التاسعة عشرة ، يدافع عن الكـدية ، ويذكر الكثير من بواعثها وقـد ذكر التوحيدى (٢/١٤٣ الامتاع والمؤنسة) الساسانيين راثيا لحالهم ٠

وفى مقامات الحريرى المقـامة الساسانية التاسعة والأربعون ، وفيها يوصى أبو زيد السروجى ابنه وولى عهده وكبش الكتيبة الساسانية من بعـده بصناعة الكدية ، وبالزهـد فى غيرها من الصناعات ، ولـو كانت امارة أو تجارة أو زراعـة أو صـناعة ٠

وأدوات صناعة الساسانيين كما صورها الحريرى : الفطنة والذكاء والوقاحة، وأن يكون الساسانى أجـول من قطرب ، وأسرى من جندب ، وكذلك الجـد والمثابرة ، فلا يسأم الطلب ، ولا يمـل الداب ، وعليه بالاقـدام ولـو على الضرغام ، مـع تحليه بالبلاغة ، بأن يكون أخلب بصـوغ اللسان ، وأخـدع بسـحر البيـان الخ ٠

ولصفى الدين الحلى قصيدة ساسانية طـويلة فى ١٤٥ بيتا ٠

(١٥) راجـع ٣ : ١١٧ ـ ١١٩ اليتيمـة ٠

ودالية الأحنف الساسانية مشهورة وفيها يقول :

على انى بحمد الله	فى بيت من المجد
باخوانى بنى ساسا	ن اهل الجد والجد
لهم ارض خراسان	فقاشان الى الهند
الى الروم الى الزنج	الى البلغار والسند
قطعنا ذلك النهج	بلا سيف ولا غمد

وقد هزت هذه القصيدة أبا دلف ، فعارضها بقصيدته الساسانية المشهورة ، التى حشر فيها الخليفة المطيع لله العباسى (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) - الذى لم يكن يملك فى ظلال البويهيين من الأمر شيئا ، حشره فى جملة الساسانيين الصعاليك الفقراء ، وكان ذلك مما يتندر به الصاحب وعضد الدولة ، وهو على أى حال تندر مر لأنه يشير الى الحقيقة المرة كاملة ، اذ كان الخليفة فى ظل البويهيين لا شأن له بشىء من أمور الخلافة والسلطان ، ويعيش دائما فى فقر وحرمان .

قصيدة أبى دلف الساسانية(١٦) :

قصيدة طويلة ساسانية ، ذكرها الثعالبى فى اليتيمة ، وشرح كثيرا من اصطلاحاتها الساسانية ، ولها اهمية كبيرة ، لا فى شعر أبى دلف ، ولا فى الشعر الساسانى ، وحدها بخاصة ، بل فى الشعر العباسى عامة .

وقد اهتم بها المستشرقون اهتماما شديدا ، فعنوا مثلا بعدا

---

(١٦) ٢ : ٢٥٤ - ٣٧٢ اليتيمة .

جاء فيها من وصف الأوانى الصينية(١٧) ٠

وهذه القصيدة تجمع ما تفرق من اصطلاحات الساسانيين ، ولا يقاربها فى هذا الباب أثر ادبى آخر الا مقامات البديع ٠

وقد استخدم أبو دلف بكثرة فى القصيدة كلمات غامضة من اللغة السرية لآل ساسان ، وقد شرحها الثعالبى وكشف عن مغاليقها ، ولولا ذلك لما فهمنا عنها شيئا ٠ وكان أبو دلف يجيد هذه اللغة تماما وقد علم الصاحب اياها بنجاح ، وقد أعلن أبو دلف أنه نفسه من زمرة الساسانيين ٠

يقول شاعرنا من هذه القصيدة :

جفون دمعها يجرى	لطول الصد والهجر
وقلب ترك الوجه	به جمرا على جمر
لقد ذقت الهوى طعمين	من حلو ومن مر
ومن كان من الأحرا	ر يسلو سلوة الحر
كأمثالى ، وفى الغربة	أودى أكثر العمر
وشاهدت اعاجيبا	والوانا من الدهر
على انى من القوم الـ	ـبهاليل بنى الغر
بنى ساسان والحامى الـ	ـحمى فى سالف العصر

(١٧) « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » ، د٠ زكى حسن ٠

فنحن الناس كل النا س فى البر وفى البحر
اخذنا جزية الخلق ارض خيلنا تسرى
الى طنجة ، بل فى كل من الصين الى مصر
لنا الدنيا بما فيها من الاسلام والكفر
فان ضاق بنا قطر نسر عنه الى قطر

ويقول ابو دلف فى القصيدة ايضا :

ومنا شعراء الأر ض اهل البدو والحضر
ومنا سائر الانصا ر والأشراف من فهر

ويستطرد ابو دلف ، فيجعل الخليفة المطيع لله العباسى من جملة الساسانيين :

ومنا قيم الدين الـ ـمطيع الشاشع الذكر

وكان معز الدولة ثم ابنه عز الدولة قد ساموه الذل والهوان(١٨) ..

ثم يقول ابو دلف :

سقى الله بنى ساسا ن غيثا دائم القطر
الا انى حلبت الدهـ ـر من شطر الى شطر

---

(١٨) ٦/٨٦ و ٣٠٧ « تجارب الامم » لمسكويه .

وجبت الأرض حتى صر ت فى التطواف كالخضر

وللغربة فى الحر فعال النار فى التبر

وما عيش الفتى الا كحال المد والجزر

فبعض منه للخير وبعض منه للشر

فان لمت على الغربة مثلى فاسمعن عذرى

أمالى أسوة فى غر بتى بالسادة الطهر

فان اظفر بآمالى شفيت غلة الصدر

وقد تخفق فوقى عز ة الويه النصر

واما تكن الأخرى فلا أبت مع السفر

ولا عدت منى عدت بلا عز ولا وفر

هذه هى أبيات من القصيدة الساسانية ، التى نظمهها ابو دلف، وانشدها الصاحب ، وطارت شهرتها بين الأدباء وقد اتيت على أبيات قليلة منها بعيدة عن اصطلاحات الساسانيين العويصة ·

ولا نقول عنها الا أنها وثيقة أدبية كبيرة(١٩) الدلالة فى الشعر العباسى ، وأنها من أرفع نماذج الشعر الساسانى وهى حافلة بالبلاغة والصور والأخيلة العجيبة ·

---

(١٩) بعد أن كتبت ذلك وجدت آدم متز « فى الحضارة الاسلامية » ، ٢ : ١٠٧ يقول عنها : انها وثيقة اجتماعية فى القرن الرابع ·

الفصل الثالث

أبو دلف « نموذجا أدبيا رفيعا فى مقامات البديع »

- ١ -

كان ابتكار البديع الهمذانى (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ ، ٩٦٩ - ١٠٠٧ م) فى القرن الرابع الهجرى لفن المقامة حدثا أدبيا جديدا فى الأدب العربى ·

فلقد بهر النقاد والرواة أسلوبها ، ونزعة القصة فيها ، وهذا الحوار الذى طالما دار بين بطله أبى الفتح الاسكندرية وراويته عيسى ابن هشام ، كما بهرهم هذا النموذج الفنى الرفيع الذى تمثل فى شخصية الساسانى أبى الفتح البطل ·

وفتن الناس بمقامات بديع الزمان افتتانا شديداً ·

وليس هناك الا البديع نفسه ، فهو أبو المقامة فى الأدب العربى ، وصاحب الفضل فى انشائها ، ويؤيد ذلك الحريرى أبو محمد القاسم ابن على البصرى (٤٤٦ - ١٥١٦ هـ) فى مقدمة مقاماته ، فقد جعل ابتداع المقامات راجعا الى بديع الزمان ، وعلامة همذان ، وكذلك جعل الثعالبى فى « اليتيمة » البديع ابا عذرتها ، والواضع لأصولها وخطتها ويتابعهم فى ذلك كثيرون ، منهم مارون عبود مثلا ، اذ يقول(١) : ان خطة المقامات من عمل البديع ، فهو الذى ألبسها هذا الطراز ، وعلى طريقه هذه التى شقها سارت عجلة الأدب ألف عام ، وعبثا نحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع ·

---

(١) ٢٤ « بديع الزمان » لمارون عبود ·

وكذلك ذهب مازن المبارك الذى يقول(٢) : فتح البديع باب فن جديد هو فن المقامة فى الأدب العربى ٠

هذا هو الرأى السائد فى نشأة المقامة ، ولكن الحصرى صاحب كتاب « زهر الآداب » يذهب فى كتابه(٣) الى أن البديع اقتبس فن المقامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ) ، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكى مبارك(٤) أن البديع ليس هو المبتكر لفن المقامة ، وان كان له فضل في نشأتها ، وينفى مؤلف كتاب «بديع الزمان رائد القصة القصيرة» وهو مصطفى الشكعة(٥) أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامة كما عرف عند البديع ٠

ويجعل آخرون البديع محتذيا حذ استاده ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) فى رسائله الحوارية ٠

ويذكر آخرون ، ومن بينهم شوقى ضيف(٦) ، أن البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه فى البخلاء والحيوان والمحاسن والأضداد عن أهل الكدية ، ومع جواز ذلك فى المضمون ، فان شكل المقامة الفنى يبقى جديدا كل الجدة عند البديع : وهناك على أية حال فرق بين البذرة والثمرة فى اى عمل أدبى أو غير أدبى ٠

ويجعل بعض المستشرقين أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان هما الملهمتان للبديع بفكرة المقامات ، ويذكر آخر أن قصص جحا فى للآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر فى نشأة المقامة ، وهذا كله كلام يعوزه الدليل ولا تنهض به الحجة(٧) !

---

(٢) ص ١٦ « مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته » ـ مازن مبارك ٠

(٣) ١ : ٢٣٥ « زهر الآداب » ٠

(٤) « النثر الفنى » لزكى مبارك ٠

(٥) ص ٢٠٧ « بديع الزمان » الشكعة ٠

(٦) ٢٠ « المقامة » لشوقى ضيف ـ طبع دار المعارف ٠

(٧) راجع ١٤٦ « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى » ءمؤلف ٠

ويذهب آخرون الى أن المقامة مقتبسة من أصل فارسي ، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفسون أن تكون المقامات قد وجدت في الأدب الفارسي قبل بديع الزمان ، اذ لم تعرف المقامة في الأدب الفارسي الا بعد البديع بنحو قرن ونصف من الزمان ٠٠ فأول مقامات كتبت بالفارسية هي للقاضي حميد الدين البلخي الذي بدأ بكتابتها عام ٥٥١ هـ وتوفي بعد ذلك بسبع سنوات (٥٥٨ هـ/١١٦٤ م) كما يقول براون ، ويؤكد محمد تقي بهار(٨) أن المقامة من اختراع البديع ، وأن كل اختراع في الأدب العربي كان له صداه في الأدب الفارسي وأن حميد الدين قلد البديع والحريري في مقاماته ، ويذكر الأنوري اعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين ٠

ان هذه القصة الحوارية القصيرة ، ذات المنهج الفني الملتزم ، والصياغة الطريفة ، والصيغة الجديدة ، والفكرة الساسانية ، التي دعيت مقامة ، قد انشأها بديع الزمان الهمذاني ، لتجابه مطالب الحياة الفنية والأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجددة في عصره ٠

- ٢ -

ولقد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلا ساسانيا هو أبو الفتح الاسكندري ، وهو الذي مثل كل أدوارها ، ونهض بجميع فصولها ، وقام بكل أحداثها ٠

وشخصية أبي الفتح - كما تبدو من خلال المقامات - شخصية رائعة حقا ، فهو بطل الموقف كله في المقامة ، وهو - كما يصوره الهمذاني - عالم وأديب وشاعر ، وهو ناقد بليغ ، ومغامر محتال ماهر ، مشرد في الآفاق ، تقسو عليه ظروف الحياة فلا يجد الا الكدية والاحتيال بكل أسلوب من أجل المال أو الطعام ٠ وهو الى ذلك كله مجرب حكيم خبير بالأيام وصروفها ، عركها وعركته ، يجوب الآفاق ويخطب في الأندية ، يهز الناس بفصاحته وبلاغته ٠

---

(٨) « تاريخ تطور النثر الفارسي » - محمد تقي بهار ٠

وكنية أبى الفتح لعل البديع رمز بها الى فتوحات هذا البطل وانتصاراته فى مواقفه العجيبة فى الكدية ٠

أما وصف الاسكندرى الذى لازمه فقد يكون معززا لذلك المعنى على أنه نسبة الى الاسكندر ، فتكون فتوحات أبى الفتح فى أموال الناس شبيهة بفتوحات الاسكندر ٠ وقد يناقض ذلك أن أبا الفتح يكرر فى مقاماته قوله « اسكندرية دارى »(٩) ، نسبة الى الاسكندرية لا الى الاسكندر الأكبر المقدونى (٣٥٦ - ٣٢٣ ق م) ٠٠ ويصح لنا أن نجمع بين الأمرين ، فتكون نسبته الى الاسكندرية مقصودا بها الرمز الى شبهه فى فتوحاته الساسانية بفتوحات الاسكندر التى تنتسب اليه مدينته ٠

ويقودنا ذلك الى التساؤل : أية اسكندرية كان يعنى البديع ، وكان ينتسب اليها أبو الفتح الساسانى ؟

فى المقامة التاسعة الجرجانية يقول أبو الفتح البطل متحدثا عن نفسه : انى امرؤ من أهل الاسكندرية من الثغور الأموية ٠ وفى المقامة التاسعة والعشرين الحمدانية يقول : من الثغور الأموية والبلاد الاسكندرية ٠ ويكرر ابو الفتح نسبته الى الاسكندرية فى مواضع كثيرة أخرى ٠

فاذا رجعنا الى ياقوت (١٠) وجدناه يذكر أن الاسكندر بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه ، ثم تغيرت أسماؤها بعده ، فمنها : اسكندرية مصر ، والاسكندرية التى صار اسمها سمرقند ، والتى صارت مرو ، والتى سميت بعد باسم بلخ ، واسكندرية الأندلس التى على النهر الأعظم - نهر اشبيلية - وهى التى رجحها الامام محمد عبده لوصف البديع لها بأنها من الثغور الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس فى القرن الرابع الهجرى عصر البديع ٠ الا أنى وجدت

---

(٩) راجع مثلا فى المقامة الأربعين - العلمية - قول البديع :

اسكندرية دارى   لو قر فيها قرارى

(١٠) ٢٣٥/١ معجم البلدان ٠

رحالة عربيا فى القرن الرابع - هو أبو دلف - يذكر مدينة المنصورة عاصمة السند ، ويقول عنها : ان الخليفة الأموى مقيم بها(١١) ، فهل كانت هذه المدينة قديما تسمى الاسكندرية أيضا ، ليصبح أمامنا احتمال جديد آخر ، ويذكر باحث عراقى أن الاسكندرية بين بغداد والحلة(١٢) ، ولكن ما صلتها اذن بالثغور الأموية ؟ ٠

ويذهب عبد الوهاب عزام الى أن صحة الكلمة « الآموية » نسبة الى نهر آموى(١٣) - جيحون - وبذلك تكون الاسكندرية المقصودة هى مدينة الاسكندرية على نهر آموى ٠

ومع ذلك كله فلا نزال نسير فى بيداء سحيقة ٠

- ٣ -

ونسائل أنفسنا : من هو أبو الفتح الاسكندرى اذا ؟

١ - هناك رأى سائد أنه شخصية أسطورية خيالية محضة ، كشخصية راوى المقامات عيسى بن هشام ، يقول الحريرى فى مقدمة مقاماته : كلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف ٠ وهذا ما رجحته منذ عشرين عاما فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى »(١٤) ويؤكد ذلك المستشرق الفرنسى ايوار ، فيقول : وضع البديع شخصا خياليا ابتكره وسماه أبا الفتح ،وذهب بعض الباحثين الى أن عيسى ابن هشام راوية المقامات كان شيخا للبديع ، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٠٩ هـ) مؤلف تاريخ همذان ، وينقل ذلك عنه ياقوت فى معجم الأدباء ، ولعل ذلك وهم ناشىء من قول البديع فى مطلع كل مقامة من

---

(١١) هذا النص منقول عن معجم البلدان راجع ٤٠٩/٥ معجم البلدان .

(١٢) يعد رسالة ماجستير عن مقامات الحريرى ، واسمه طارق العوسج، وهو مدرس بمكة المكرمة حاليا .

(١٣) ٢٣٤ بديع الزمان للشكعة نقلا عن محاضرات عزام فى كلية الآداب عام ١٩٤٤ م ٠

(١٤) ص ١٤٧ الكتاب المذكور .

مقاماته : حدثنا عيسى بن هشام • ولو ذهبنا الى أن أبا الفتح هو الذى كان أستاذا للبديع لكان ذلك أكثر صلة بالبحث ، وأكثر انطباقا على الموضـــــوع •

وممن ذهب الى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب « بديع الزمان » الدكتور الشكعة الذى يقول : حاولنا أن نجد لبطلى المقامات صدى تاريخيا فلم نعثر لهما على اثر والغالب انهما من ابتكار خيال البديع نفسه(١٥) •

٢ ـ وهناك رأى جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجدوا بالفعل ويذهب الى ذلك بعض المستشرقين ، الا أنهم لم يستطيعوا تحديد هؤلاء الأشخاص المجهولين ولا الكشف عن شخصياتهم التاريخية •

وأنا معهم فى ذلك • ولكنى أخطو خطوة جديدة من أجل الكشف عن شخصية أبى الفتح بطل المقامات البديعية •

ويذهب باحث عراقى(١٦) سبق الاشارة اليه الى أن أبا الفتح هو البديع نفسه ، ومن قبل قلت ذلك فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى »(١٧) حيث ذكرت أنه قد يكون فى حياة أبى الفتح شىء من صفات البديع نفسه ، وشىء من اخلاقه • ولكنى اخالف ذلك اليوم ، وستبدو الحقيقة واضحة وكاملة بعد قليل •

ويذهب باحث آخر(١٨) الى أن الكدية أو السلسانية التى كانت صناعة أبى الفتح « نجد من أعلامها فى عصر البديع من يشبه أبا الفتح من وجوه كثيرة : كابن الحجاج (ت ٣٩١ هـ) ، وابن سكرة (ت ٣٨٥ هـ)

---

(١٥) بديع الزمان ص ٢٣٢ •

(١٦) هو طارق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة دكتوراه عن مقامات الحريرى •

(١٧) ص ١٥٧ و ١٥٩ الكتاب المذكور •

(١٨) ص ٢٣٤ « الأدب فى ظل بنى بويه » للزهيرى ـ طبع مصر ١٩٤٩ •

وأبى الورد ، ومن يشبهه من بعض الوجـوه كأبى حيان التوحيدى ، بل البديع نفسه ، ومن يشبهه كل الشبه كأبى دلف والأحنف العكبرى » ٠٠ ومجمل هـذا الرأى أن أشباه أبى الفتـح الاسكندرى كثيرون فى عصر البديع ، وأن أقربهم شبها به هـو أبو دلـف أو الأحنف ٠ وهـذا الرأى لا يأتى لنا بجـديد ولا بأمر مؤكد فى البحث على أية حال ، فلم يجزم هذا الباحث برأى معين لـه ٠

٣ - ورأيى الذى اذهب اليه اليوم هـو أن أبا الفتح انمـا هـــو شخصية تاريخية معروفة فى عصر البـديع ، وهـو أبو دلـف الخزرجى وحـــده ٠

وهـذا الرأى لا يسبقنى فيـه باحث ، وبه ينفتح الباب امامنا لفهم كثير من حقـائق الأدب فى القرن الرابع ٠٠ ودليلنا عليه هـو ما قالـه الثعالبى فى « يتيمـة الدهـر »(١٩) قال :

أنشدنى بديع الزمان لأبى دلف ، ونسبه فى بعض المقامات الى أبى الفتـح الاسـكندرى :

ويحـــك هـــذا الزمـان زور فــلا يغــرنك الغـــرور(٢٠)

لا تلتزم جالـــة ولكـــن در بالليـــالى كمـــا تـدور

ومن هـذا النص نعرف الحقـائق الآتية :

١ - أنشد البديع الثعالبى شـعرا لأبى دلف ٠

٢ - وهـذا الشعر نفسه نسبه البديع فى مقاماته الى أبى الفتح ، فتكون النتيجة هى أن أبا الفتـح هـو أبو دلف نفسه بإقرار البديع ٠

---

(١٩) ٣ : ٢٥٤ اليتيمـة ٠

(٢٠) هـذا الشعر فى المقامة القريضية احـدى مقامات البديع ٠

٣ - كان البديع راوية لشعر ابى دلف ، ويبــدو لى ان البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم ٠

واذن يكون أمامنا رأى جــديد نجزم به ، هــو أن البديع حين كتب مقاماته اختــار أبا دلف أستاذه وصــديقه ومعاصره بطلا للمقامات،وكنى عنه بأبى الفتــح ، وكان أبو دلف أروع نمـــوذج ساسانى يصلح بطـــلا المقامات ، لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذى صــوره البديع فى المقامات فى شخص أبى الفتح الاسكندرى ، ولأن شــهرة وتجارب أبى دلف كانت تصلح معينا يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبا الفتح وذلك ما قــد كان ٠

بل انى أضيف الى ذلك أن البديع الهمــذانى حين سمع قصص ابى دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه فى البلاد ، واستمع الى فكاهات هــذا الشيخ وسمره فى مجالس المــلوك والأمراء والوزراء رأى أن هــذه الصــورة الفنية تصــلح أساسا لفــن جــديد ابتــكره وسماه « المقــامة » ، فكان أبو دلــف هــو المــلهم للبديع الشاب الذكى بابتكار فــن المقامة فى الأدب ، العربى ، فى القرن الرابع ، وفى عصر أبى دلف ٠

ملحق بالكتاب :

ينبع موطن أبى دلف

ينبع من اقليم الحجاز ، تطل على البحر الاحمر ويقال لها : الينبع ، والينبوع ايضا ، وهما تحريف للاسم الأول ٠

وهى الآن امارة تضم مقر الامارة ينبع البحر ، وينبع النخل الزراعية بقراها العديدة ٠

وذكر يافوت عن الشريف ابى سلمة بن عياش الينبعى أنه قال : عددت بها مائة وسبعين عينا ٠

ومن اشهر جبال ينبع رضوى (يرتفع عن سطح البحر بنحو ١٨١٤ مترا ، ووادى ينبع مشهور ، وبجواره وادى العيص

وقد وقعت غزوة العشيرة فى اقليم ينبع ، وقد غزا رسول الله بنفسه هذه الغزوة ، وهى فى بطن وادى ينبع ٠ وفى ينبع « عين البركة » و « سويقة » من منازل الطالبيين ٠

وكان الامام على بن ابى طالب يقيم فى ينبع قبل توليه الخلافة ٠ وكان بها معجبا ، ويروى المؤرخون عنه أنه نظر الى جبالها فقال : « لقد وضعت على نقب من الماء عظيم » ٠ ثم استوطن بنوه واحفاده تلك الجهات وانتشروا وكثروا فيها ، وملكوا عيون ينبع ومزارعها ٠ وازدهرت ينبع فيما بعد حتى فاقت المدينة المنورة ٠ ووصفها المقدسى فى القرن الرابع الهجرى قائلا:«ينبع كبيرة جليلة،حصينة الجدارى،غزيرة الماء، اعمر من يثرب،واكثر نخيلا،حسنة الحصن،حارة السوق»٠وفى القرن السادس الهجرى قامت فيها للحسنيين دولة كان من اشهر رجالها الشريف « قتادة » جد ولاة مكة من الأشراف ٠ وكان قتادة وذووه يسكنون فى « العلقمية » من عيون ينبع المعروفة الآن ٠ وقد استمر الملك فى آل قتادة يتوارثونه حقبة من الزمان واتخذوا من وادى ينبع حصنا لهم ٠ ثم

أصبحت ينبع احدى المحطات الرئيسية التى يمر بها الحجاج القادمون من مصر والشام برا أو بحرا • وكان الحجاج وأهل ركب المحمل يستبشرون باقترابهم من « أم القرى » عند وصولهم الى ينبع • فيقيمون فيها ثلاثة أيام أو أربعة يريحون فيها أنفسهم من عناء السفر حيث النخل الكثير والعيون الجارية والينابيع العذبة المتفجرة • وتقام فيها سوق كبيرة يجد فيها الحاج كل ما يلزمه من أصناف الطعام من لحوم وسمن وعسل وتمر وخضار ، ولهذا كان مرور الحجاج بها يعتبر من المواسم المشهودة •

وفى بداية القرن الثانى عشر الهجرى تعرضت منطقة ينبع للحروب والفتن فحلت بها وبأهلها الكوارث والأرزاء مما صرف سكانها عن العناية بالزراعة ، قوام تلك المنطقة • وفى أول العهد السعودى بعد استتباب الأمن وانتشار العدل ، نشطت حركة الزراعية فانتعشت البلاد بصفة عامة • الا أن هذه الحالة لم تدم طويلا ، اذ نضبت فيها عيون كثيرة أدت الى ضعف حركة الزراعة وبالتالى الى هجرة الكثيرين من أهلها الى جدة ومكة المكرمة والمدينة المنورة • وقد تنبهت الدولة لهذا الأمر فأعدت لها فى السنوات الأخيرة مشاريع زراعية كفيلة برفع مستواها الزراعى واستقرار سكانها •

أما ينبع البحر فلم يكن لها شأن يذكر عند المؤرخين فى العصور الاسلامية قبل القرن السابع الهجرى ، مع أن بعض المستشرقين يرى أنها كانت معروفة قبل الاسلام ، بل قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وفى صدر الاسلام اتخذ المسلمون الأولون لتجاراتهم الكبيرة من « الجار » ميناء ، عندما كانت لهم علاقات تجارية قوية مع بلاد الحبشة • وقد اكتسب هذا الميناء شهرة كبيرة حتى أن البحر الأحمر كان يعرف ببحر الجار • ويقع الجار فى المكان المعروف الآن باسم « الرايس » الى الجنوب من ميناء ينبع ، بينما يرى بعض الباحثين أنه يقع فى مكان ميناء « البريكة » الذى لا يزال يستعمل على نطاق محدود • وفى أواخر القرن السادس الهجرى بدأ أمر الجار يضمحل وأخذ ميناء ينبع يقوى ، حينما جعله الأيوبيون الميناء الرئيسى

للمدينة المنورة وأقاموا فيه بعض الانشاءات • وفى عهد الجراكسة، ، حكام مصر والشام والحرمين ، ارتفع شأن ميناء ينبع لاستقباله الكثير من السفن التى تحمل الجرايات المقررة من حبـوب للمدينة المنورة ، بالاضافة الى لوازم الحرم الشريف وما يحتاج اليه ركب المحمل • وفى آخر عهد الجراكسة عمت الفوضى فى الحجاز مما أدى الى انقطاع سبيل الحجاج مدة ، فكان أثر ذلك سيئا على الشقيقتين ينبع النخـل وينبع البحر • ثم عاد الميناء الى سابق عهـده ابان حكم السلطان « سليمان القانونى » الذى أمر بانشاء مخازن للحبوب ، وبتشييد جامع كبير فى البلـدة ، وباصلاح الميناء وتوسيعه • ثم تضعضع شأن اقليم ينبع عامة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين بضعف الدولة العثمانية، ولم تتذوق طعم الازدهار ولم تهنأ بالاستقرار بعـد ذلك الا فى العهـد السعودى بعـد أن استتب الحكم ، فأدخل عليها من الاصلاحات والمشاريع ما جعلها بحـق مفتاح المدينة المنورة والميناء الثانى على ساحل البحـر الأحمـر الشرقى بعـد ميناء جـدة •

وينتمى معظم سكان منطقة ينبع النخـل الى قبيلة جهينة ، والبعض الى قبيلة حرب • أما أكثرية سكان مدينة ينبع البحر فهم من الأسر العربية التى انتقلت من صعيد مصر واستوطنت هـذه المدينة • هـذا وقـد نزحت اليها مؤخرا بعض الأسر من الأشراف ونشطت ميناؤها • ويعمـل معظم أهالى ينبع النخـل فى الزراعـة وتربية النحـل والمواشى • أما سكان مدينة ينبع البحر فيشتغلون بالتجارة وصيد الأسماك وصناعة القـوارب الشراعية وفى الوظائف الحكومية المختلفة • ويضم وادى ينبع أربعـا وعشرين قرية صغيرة متقاربة ، تقـوم كل منها على عين ، وهى : الجابرية ، التى تشتهر بسوق يوم الجمعة ، وهى من أقـوى العيون فى المنطقة ، والسكوبية ، والمزرعـة ، وعين عجلان ، وعين على الحربية ، وعين على الجهنية ، والفجة ، وخيف فاضل ، والسويق ، المشهورة بسوق يوم الاثنين النشطة ، اذ يجلب اليها أهـل البادية من المناطق المجاورة المواشى والسمن والعسل والفحم الخشبى والخضار والفـواكه ، والمعروف أن السوق كانت حتى وقت قريب مقر الامارة فى ينبع النخـل ثم أصبحت تابعـة لامارة ينبـع البحر •••

أبو دلـف ٠٠ والبـديع

لا ريب أن أبا دلـف هـذا الشيخ المجرب الحكيم ، المتعـدد جوانب الشخصية ٠٠ كان ينظـر الى بديع الزمان الشاب المتوقـد ذكاء ونبـوغا وعبقرية ٠٠ نظرة الأستاذ الى تلميذه ٠

وكان البديع يضع أبا دلف موضـع الأستاذية ، ويحـله من نفسـه منزلة رفيعـة ، ويعجب لروحـه الفكهة وثقافته الواسعة ، وظرفه الذى لا حـد لـه ، والى حلو مجلسه ، وروائع نوادره وطرائفه ، بكل تقـدير وحب واعجاب٠٠٠الشعور نفسه متبادل بين الأستاذ والتلميذ،بين جيل وجيل ، بين عبقرية وعبقرية ٠

وكان البديع ينصت الانصات العميق لرحلات ابى دلف وصـور مشاهده فى هـذه الرحلات ، وكان كل ذلك يقـع فى نفسه موقع الاعجاب والاستغراب معـا ٠

ومن ثم فقـد اتخـذ البديع أستاذه أبا دلف نمـوذجا أدبيـا رفيعـا للساسانى العجيب لظـريف العبقرى الأديب ، وسماه فى مقاماته بأبى الفتـح الاسكندرى ، ورسم لـه صورة رائعـة من الذكاء والمعرفة والبلاغة والقـدرة على امتلاك عقـول الجماهير وأذواقهم معـا ٠

وجعـل البديع أبا الفتـح بطلا أو قـل (مهرجا) كبيرا ، لا تفوته فرصـة ، ولا تنـد عنه شاردة ، ولا تغيب عن ذهنه اللمـاح خاطرة ، وجعـله محتالا ظريفـا ، وقصيصا بارعا ، وبليغـا يمـلك البـاب النـاس وعقـولهم وأذواقهم جميعا ٠

وبلغ البـديع فى تصـويره لأبى دلف مبـلغ الاتقـان والجـودة والروعـة معـا ٠

وكان أبو الفتح ـ كما صوره البديع ـ خبيرا باقتناص الأموال ،

واستخراج الدراهم والدنانير ، من جيوب الأغنياء والأثرياء ، بل ومن الفقراء أيضا ، ببلاغته وبيانه الساحر الغريب ·

ورسم ابا دلف ، أو قل أبا الفتح ، فى صورة لا يستطيع احد أن يرسمها ، أو ان يصور بطله فى هذا النموذج البديع المذهل ·

وكان اعجاب الناس وحفاوتهم بهذا النموذج البطل فريدا ، فقرأوا مقامات البديع ، وهم شبه مسحورين ، ورددوها وحفظوها ، وهم جد ميهورين ·

ومن اين لبليغ أن يكتب مثل هذه الروائع الفريدة ، والشوارد الجديدة ، ومن اين لقلم أن يخرج فرائده فى صورة دونها السحر ، وان كانت فى ثوب النثر والشعر ؟

ولا يرجع هذا العجب العجاب الى ظرف البديع وحده ، بل الى جلال النموذج وعظمته ايضا ، فابو دلف هذا النموذج العبقرى للأديب المحترف الساسانى ، هو هو فى عظمة الصورة المرسومة ذاتها ·· عبقرية الصورة تماثلها عبقرية المصور (بكسر الواو) وعبقرية المصور (بفتح الواو) معا ·

ومن ثم خلد هذا النموذج وتتوسى اصله ، وبقى النموذج مجهول الهوية ، يتخيل المطالعون له أنه رسم أسطورى لشخص اسطورى·

ونحن نعجب لمعاصرى ابى دلف والبديع ، وللأجيال التى جاءت من بعدهم : كيف غابت عنهم حقيقة هذا النموذج ، وتناسته ثم نسيته تماما خلال الف عام ·

والثعالبى فى ذكائه أعطى لنا المفتاح الذى فتحنا به باب هذا الكنز المجهول ، فرأيناه ورآه الناس عجبا ·

وليس فى وسعنا الا أن نحمد الله أن اتضحت الصورة ، وأن كشفنا

عن أصل هذه الصورة الوحيدة الفريدة ، واذ كان يفرح الانسان بكنز مدفون يهتدى اليه فى باطن الأرض ، فقد كان فرحى كبيرا حقا بأن اهتديت الى الكشف عن أمور عجيبة كانت محجبة فى ضمير الغيب ٠

لقد كشفت عن شخصية أبى الفتح ، وقلت : أنه هو هو ابو دلف الخزرجى الينبعى ، مسعر بن المهلهل ٠

وكشفت فى الوقت نفسه عن شخصية ابى دلف وحياته بالتفصيل ، بعد أن غابت صورته ، وغام شبحه فى ظلال النسيان ٠

وكشفت عن أبى دلف وانه هو مسعر بن المهلهل ، هذا الرحالة العجيب المتعدد الثقافات والجوانب ٠

قل عنه : أنه اديب ٠

أو قل عنه : انه شاعر ٠

او قل عنه : أنه مؤلف ٠

او قل عنه : انه رحالة جوالة فى الآفاق ٠

أو قل عنه : طبيب حاذق بارع ٠

او قل عنه : انه جيولوجى متميز ٠

أو قل عنه : انه سفير وسياسى رفيع المنزلة فى عصره ٠

او قل عنه : انه نديم الملوك والأمراء والوزراء ٠

قل عنه : ذلك أو قل عنه : أكثر من ذلك ، فهو كل ذلك جميعا أو يزيد ٠

أبو دلف الحكيم وأبو دلف الأديب وابو دلف الظريف ، وأبو دلف

السياسى ، صورة لعبقرية كبيرة عاشت فى القرن الرابع الهجرى ·

وانا أقول : ان القرن الرابع الهجرى هو عصر المتنبى وأبى دلف ·

انهما صورتان للعصر ، ولم ينجب العصر أرفع منهما قدرا فى المنزلة الأدبية ·

هو عصر المتنبى وأبى دلف حقا ·

انى لأحيى هذين العلمين الكبيرين الخالدين ··

ومن حظى أن أخرج هذا الكتاب عن أبى دلف ، وأن يصدر لى ولصديقى الأديب الكبير د· عبد العزيز شرف شرح جديد لديوان المتنبى ·

وبالله التوفيق ··

خاتمة الكتاب

وبعد ، فهذا أبو دلف الخزرجي بطل مقامات البديع ، رحالة من أعظم الرحالة الجغرافيين المسلمين على امتداد التاريخ وبخاصة فى القرن الرابع ٠

وعالم وطبيب وكيمائى وجيولوجى من الطراز الأول فى عصره ٠

ومنادم فى الذروة ، جلس فى مجالس الملوك ينادمهم ، وينادم الوزراء والأمراء ، وينال عندهم الحظوة والمكانة الرفيعة ٠

وشاعر رفيع المنزلة فى عصره فى الشعر ، وعلم من اعلام الشعر الساسانى الذى كان له طرافته وروعته فى عصره ٠

ونموذج فنى رفيع للساسانية التى تتميز بالظرف وعلو الذوق وجمال الفكاهة ، مما حببه الى الملوك وقربه الى الوزراء ٠

وشخصية فذة اهتزت دوائر المشرق بدراسة افكارها ونتائج الرحلات التى قام بها فى شتى أنحاء آسيا ٠

ولقد كان بديع الزمان الهمذانى وثيق الصلة أبى دلف ، وواقفا على أخباره ، وراوية لشعره ، وفى اليتيمة ما يدل على ذلك(١) ٠ وكانت شخصية أبى دلف ملء سمع البديع وبصره ، ورحلاته وتطوافه فى الأرض موضع عجبه واستطرافه،كما كانت شيخوخة أبى دلف وتجاربه وحكمته وخبرته بالحياة ، وتنقله بين الغنى والفقر ، وحرفته الساسانية وهو علم فيها ٠٠ كان ذلك كله موضع تأمل البديع وتعجبه ، لذلك فان البديع حين كتب مقاماته اتخذ من ابى دلف وحياته وشخصيته بطلا للمقامات التى ابدعها ، ورمز اليه بأسم أبى الفتح الاسكندرى ٠

---

(١) ٣ : ٣٢٣ اليتيمة ٠

وتقــول تاكيدا لذلك : ان جميع ما صــور به البديع بطــل مقــاماته ابا الفتــح الاسكندرى ينطبق على أبى دلف تمام الانطباق .

فهو خطيب وبليغ وشاعر ، وهــو جوالة فى الآفاق ، وهــو يحترف الساسانية تظرفا ودعابة وحلو فكاهة ، والعجب من قعــود همته مــع حسن آلته ، وهو كهل قــد غير اخيرا فى وجهه الفقر ، وهو كما يقــول البديع فى المقامة الصيمرية على لسان أبى الفتح :

« خرجت اســـيح كأنى المسيح ، فجلت خراســـان الى كرمان ، وسجستان ، وجيلان ، الى طبرستان . والى عمان ، الى السند والهند ، والنــوبة والنبط ، واليمن ، والحجاز والطــائف ، فجمعت من النــوادر والأخبار والأسحار والفوائد .. ما قصر عنه فتيا الشعبى » ... وهــذا هــو ابو الفتح فى أدق صورة ، وفى أوضح مثالاته ..

والله ولى التوفيــق ..

المؤلــف

المصـــادر والمراجـــع

رجعنا فى هــذا البحث الى كثير من المصادر ، التى نكتفى هنــا بذكر بعضها :

١ ـ يتيمة الدهر للثعالبى ـ بتحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ـ ٤ اجــزاء ٠

٢ ـ معجم البلــدان لياقوت طبعة مصر ١٣٢٣ هـ ٠

٣ ـ مروج الذهــب للمسعودى ـ بتحقيـــق محمـــد محيى الدين عبــد الحميــد ٠

٤ ـ أخبــار الزمان للمسعودى ـ طبعة بيروت ٠

٥ ـ التنبيه والاشراف للمسعودى ٠

٦ ـ مقــامات بديع الزمان ٠

٧ ـ مقــامات الحــريرى ٠

٨ ـ عجائب المخلوقات للقزوينى بتحقيق الصيرفى والأبيارى ٠

٩ ـ آثار البــلاد للقزوينى ـ دار صــادر ١٩٦٩ ٠

١٠ ـ الجماهر فى معرفة الجواهر ـ والآثار الباقية : للبيرونى ٠

١١ ـ تحقيق ما للهند من مقــولة للبيرونى ٠

١٢ ـ مختصر كتــاب البلــدان لابن الفقيه ٠

١٣ ـ المسالك والممــالك للاصطخرى ـ طبع القاهرة ١٩٩١ م ٠

١٤ ـ معجم الأدباء لياقوت ـ نشر فريد رفاعى ٠

١٥ ـ ديوان الصاحب ٠

١٦ ـ رسائل الصاحب ٠

١٧ ـ رسائل البديع ٠

١٨ ـ رسائل الصابى ٠

١٩ ـ البخلاء للجاحظ ـ بتحقيق الجارم ٠

٢٠ ـ الحيوان للجاحظ ـ بتحقيق عبد السلام هارون ٠

٢١ ـ البيان والتبيين للجاحظ بتحقيق هارون ٠

٢٢ ـ المحاسن والأضداد للجاحظ ٠

٢٣ ـ المحاسن والمساوىء للبيهقى ٠

٢٤ ـ الخراج لقدامة ٠

٢٥ ـ احسن التقاسيم للمقدسى ٠

٢٦ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه ـ تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ٠

٢٧ ـ الأغانى لأبى الفرج ـ طبع دار الكتب ٠

٢٨ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة ـ طبعة دار الكتب ٠

٢٩ ـ الأخبار الطوال للدينورى ـ مصر ١٣٣٠ هـ ٠

٣٠ ـ الأمالى للقالى ـ طبعة دار الكتب المصرية ٠

٣١ ـ الامتاع والمؤانسة للتوحيدى ـ طبعة مكتبة الحياة بيروت ٠

٣٢ – رسائل الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون ·

٣٣ – تاريخ الاسلام للذهبى « طبعة مصر » ستة أجزاء ·

٣٤ – تاريخ بغداد للبغدادى – ١٤ جزءا – طبعة القدسى ·

٣٥ – تاريخ جرجان – للسهمى – حيدر آباد ١٩٥٠ ·

٣٦ – تاريخ اصبهان لأبى نعيم – ليدن ١٩٣١ ·

٣٧ – تاريخ الطبرى – طبع دار المعارف بمصر ·

٣٨ – الكامل للمبرد – طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة ·

٣٩ – فحول الشعراء للأصمعى بتحقيق المؤلف ·

٤٠ – الصناعتين للعسكرى – طبعة عيسى الحلبى ·

٤١ – معجم ما استعجم للبكرى – ٤ أجزاء – القاهرة ١٩٤١ ·

٤٢ – تجارب الأمم لمسكويه ·

٤٣ – البحوث الأدبية للمؤلف – طبع دار الكتاب اللبنانى ·

٤٤ – الفهرست لابن النديم – طبعة مصر ·

٤٥ – المكتبة الجغرافية – طبعة ليدن – ٨ مجلدات ·

٤٦ – مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده – جزءان ·

٤٧ – كشف الظنون لحاجى خليفة – طبعة المعارف التركية جزءان ·

٤٨ – نهاية الأرب للنويرى – طبع دار الكتب المصرية ·

٤٩ – صبح الأعشى للقلقشندى – طبع دار الكتب المصرية ·

٥٠ - النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى - دار الكتب .

٥١ - دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة الانجليزية الجديدة فى الحديث عن أبى دلف - والترجمة العربية - طبع مصر - فى مواضع كثيرة تتصل بالبحث .

٥٢ - مقدمة ابن خلدون - المكتبة التجارية .

٥٣ - الجغرافيون العرب لصبرى محمد حسن - طبع النجف .

٥٤ - الجغرافيا والرحلات عند العرب - نقولا زيادة .

٥٥ - اعلام التاريخ والجغرافيا - المنجد - طبع بيروت .

٥٦ - شمس العرب تسطع على الغرب لهونكة - طبع بيروت .

٥٧ - العرب والملاحة فى المحيط الهندى - حورانى .

٥٨ - حديث السندباد القديم - حسين فوزى .

٥٩ - ابن فارس للأستاذ هلال ناجى - بغداد .

٦٠ - المجلة الجغرافية - مصر .

٦١ - تاريخ التمدن الاسلامى لزيدان .

٦٢ - الرواد نشر المقتطف .

٦٣ - الرحالة العرب - نقولا زيادة .

٦٤ - الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى - زكى محمد حسن .

٦٥ - الرحلات - دار المعارف - بقلم د. شوقى ضيف .

٦٦ - الجغرافيا عند العرب : يسن الحموى .

٦٧ - تاريخ الأدب الجغرافى العربى - كراتشوفسكى - نشر الجامعـة العـربية ·

٦٨ - جهود المسلمين فى الجغرافيا - نفيس أحمد - القـاهرة ·

٦٩ - الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى - المؤلف ·

٧٠ - ابن المعتز - المؤلف ١٠٥٨ القـاهرة ·

٧١ - أبو عثمان الجاحظ - المؤلف ١٩٦٣ القـاهرة ·

٧٢ - مجتمع الهمـذانى من خلال مقاماته مازن المبارك ·

٧٣ - بلاد ينبع للعلامة حمد الجاسر - دار اليمامة بالرياض ·

٧٤ - بديع الزمان للشكعة - نشر دار الفكر العربى بالقـاهرة ·

٧٥ - بديع الزمان لمـارون عبـود ·

٧٦ - الكامل لابن الأثير - المنيرية ١٣٥٧ هـ ·

٧٧ - تاريخ اليعقوبى - بيروت - دار صادر ١٩٦٠ ·

٧٨ - المقـامات لشـوقى ضـيف ·

٧٩ - الحيـاة الأدبية فى العصر العباسى - المؤلف ·

٨٠ - تاريخ الأدب العـربى لبروكلمان ·

٨١ - تاريخ آداب اللغـة العربية - لزيدان ·

٨٢ - تاريخ الشعوب الاسـلامية لبروكلمان ·

٨٣ - ديـوان صـفى الدين الحـلى ·

٨٤ - ديـوان الشريف الرضى ·

٨٥ ـ الرسـالة الثانية لأبى دلف ٠

٨٦ ـ الأعـلام للزركلى ـ القـاهرة ـ ١٩٥٧ ٠

٨٧ ـ تاريخ خليفة بن خيـاط ـ النجف ١٩٦٧ ٠

٨٨ ـ وفيـات الأعيان لابن خلكان ـ ٣ اجزاء ٠

٨٩ ـ مجلة قافلة الزيت عـدد المحرم ١٣٩١ هـ ـ مارس ١٩٧١ ـ مقال عـن ينبـع ٠

الى غير ذلك من المراجـع التى اشرنا اليهـا فى هامش الكتـاب والى غير ذلك من المراجـع التى رجعنا اليها ولم نستفد منها كثيرا فى كتـابة هـذا البحـث ٠

وبالله التوفيـق ٠٠

فهرســـت الكتـــاب

صـــدر عن مكتبـــة الأنجـلو المصرية

١ ـ مدارس الشعر الحـــديث ـ د٠ محمد عبد المنعم خفاجى ـ ١٩٩٢ ٠

٢ ـ صور من الأدب الحـــديث ـ ٤ أجزاء ـ للمؤلف نفسه ـ ١٩٥٥ ٠

٣ ـ روائع الشعر العربى بين الأصـــالة والتجـــديد ـ للمؤلف نفسه ـ ١٩٨٧ ٠

٤ ـ كيف تكتب بحثا جامعيا ؟ ـ للدكتورين عبد العزيز شرف وخفاجى ـ ١٩٨٦ ٠

٥ ـ النحـــو لرجال الاعـــلام ـ للدكتورين عبد العزيز شرف وخفاجى ـ ١٩٨٨ ٠

٦ ـ الفـــن الأدبى ـ للناقـــد الأســـتاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى ـ ١٩٦٠ ٠

٧ ـ العقـــاد صحفيا وأديبـــا للدكتورين شرف وخفاجى ـ ١٩٩٠ ٠

٨ ـ موقف النقـــاد من الشـــعر الجـــاهلى : محمـــد عبد المنعم خفاجى ـ ١٩٩١ ٠

صـــدر حـــديثا للمؤلـــف

مدارس النقـــد الأدبى الحـــديث

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٣٤ لسنة ١٩٩٦
الترقيم الدولى 7 - 1435 - 05 - 977

مطبعـــة
أبنـــاء وهبـــة حســـان
٢٤١ (أ) ش الجيش ـ القـــاهرة
ت : ٩٢٥٥٤٠